جامعة بيرزيت

صفحات من الذاكرة الفلسطينية

رقم ٣

تذكرات

يسره صلاح

مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني

SPC
DS
126.6
.S24
A3
1992
BZU

Digitized by Birzeit University Library

C. 2
Acc. # 98146
BZU

جامعة بيرزيت

صفحات من الذاكرة الفلسطينية

رقم ٣

تذكرات
يسره صلاح

إشراف

د. علي الجرباوي

مكتبة جامعة بيرزيت
050864
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
54078

تنفيذ

لبنى عبد الهادي

SPC
DS
126.6
S24
3
92
ZU

أيلول ١٩٩٢

Digitized by Birzeit University Library

تجميع روايات قد تسهم في احد مستوياتها التحليلية بسدّ فجوات وثغرات تفصيلية هامة لترميم الصورة التاريخية الشاملة للحقبة الفلسطينية الحديثة. وفي مستوى تحليلي آخر يمكن لهذه الروايات ان تشكل نافذة واسعة ينظر من خلالها الى صورة متكاملة تبين ملامح الحقبة المشار اليها، فتصبح بمجموعها مدخلا ملائما لاستخدام الدارسين والباحثين اثنا عملية تقويم تاريخ فلسطين الحديث.

يقوم المشروع اساسا على اجراء مقابلات مع اشخاص - كل على حدة - كان لهم دور في مجال من مجالات الحياة الفلسطينية العامة. وتشتمل المقابلات على تسجيل ما يتذكره الشخص ليس عن مراحل حياته المتعاقبة فحسب، وانما تداخلات هذه التذكرات عن السيرة الذاتية مع ما دار حولها من احداث وتطورات ترصد التغير الذي شهده المجتمع والبلاد من وجهة نظر الراوي أيضا. وبعد تسجيل المقابلات وصياغتها بلغة تستهدف الحفاظ على السلامة اللغوية من جهة، والاحتفاظ بنكهة المقابلة في منهج التاريخ الشفوي من جهة أخرى، يتم أخذ موافقة صاحبها النهائية عليها، ومن ثم تصدر في مطبوعة مذيلة بوثائق وصور منتقاه.

وبما أن المقصود أن يبقى هذا المشروع مستمرا، يجري ضمنه تسجيل تذكرات متوالية لأكبر عدد من الأشخاص ذوي الإسهام في مجال أو أكثر من مجالات الحياة الفلسطينية العامة، فإنه يسعى لتحقيق غايات محددة ثلاث. أولا، تجميع تذكرات ذاتية لأكبر عدد من الأشخاص، ولكن بمنهجية تحتفظ وتحاول إبراز الخصوصية الفردية لكل حالة شخصية. فلكل حالة خصوصيتها، في مجال الحياة، وفي الوقائع والتجارب والأحداث التي أثّرت على سير الحياة، وفي المقدرة على التذكر وسرد مجرى الحياة. ولذا، فلكل حالة وجهة نظر مميزة وعبر يمكن ان تستخلص منها. ولذلك آثرنا نقل وقائع الروايات كما ارادها ورواها اصحابها، بأقل قدر من التدخل في المضمون سوى عند ملاحظة مغالاة واضحة، او اكتشاف فجوات او هفوات تاريخية مؤكدة. وعلى هذا الاساس، يفترض بالدارسين والباحثين التعامل مع كل حالة من هذه الذكرات على اساس انها رواية ذاتية جرى تقنينها، ولكن لم يتم تحقيقها. فهي مادة تبقى اولية، نعتقد بقيمتها واهميتها، ونقدمها لذلك للمهتمين ليقوموا بدورهم بمعالجتها، واستخلاص ما يجدون فيه غايتهم منها. ونحن على الاعتقاد بأن كل واحدة من هذه التذكرات تضم عالما قائما بذاته، ويمكنها لذلك ان تشكل بذاتها ولذاتها وحدة كاملة.

وثانياً، إن توالي تجميع الروايات واصدار التذكرات سيؤدي بالضرورة الى تراكم مجموعات منها تتعلق بمجالات محدّدة، كالتعليم او الصحة على سبيل المثال، ومدن فلسطينية

Digitized by Birzeit University Library

معينة . وبدراسة التقاطعات والتباينات التي تمنحها التذكرات المختلفة عن حقل معين او مدينة معينة يمكن الشروع بعملية تجميع لفسيفساء معلوماتية يمكنها في نهاية المطاف ان تشكل صورة جديدة اكثر تكاملا عن ذلك الحقل او تلك المدينة .

اما الغاية الثالثة فهي السعي للاسهام بتشكيل رؤية متكاملة عن تاريـــخ فلسطيـــن الحديث . فكل رواية تسجّل ستشكل جزءاً اضافياً من هذا التاريخ ونحن يحدونا الامل بأن استمرار تسجيل التذكرات سيؤدي في نهاية المطاف الى تشكيل الصورة الاكثر تكاملا لتاريخنا الحديث ، خاصة لحقب منه خلت ويمكن ان يضيع بعض من جزئياتها ودقائقها ان هي بقيت مدفونة في صدور من عايشها واسهم في صناعة جزء من احداثها ووقائعها .

وقبل اختتام هذا التقديم يجب الاعتراف باننا قد نواجه بتساؤلات ، وربما بانتقادات ، حول الكيفية التي تم بموجبها انتقاء الرواة . ويجب ان نعترف بداية باننا كنا بالفعل انتقائيـين ، مستهدفين الشروع من نقطة بداية غير محددة بصورة منهجية ، على ان يتشعب الاستمرار لاحقا في تنفيذ المشروع بناء على تقنين التوصيات التي نتلقاها من الرواة انفسهم ، ومن محتويات تذكراتهم ، ومن مجموع الدارسين والباحثين والمهتمين في مجالات الحياة الفلسطينية الحديثة

قام بتصميم مشروع "صفحات من الذاكرة الفلسطينية" ويشرف على تنفيذه د. علي الجرباوي . يجري الدراسات لهذه السلسلة ويقوم باعدادها واصدارها فريق عمل من داخل المركز مؤلف من لبنى عبد الهادي ، بسام الكعبي ، وعبد الرحيم المدور ، اضافة الى مجموعة من الباحثين غير المتفرغين من خارج المركز . ويقينا ان هذا المشروع لم يكن ليخرج الى حيّز التنفيذ الا بعد اقتناع العديد من الاشخاص بجدواه واستعدادهم ليكونوا فاتحة الرواة . الى جميع هؤلاء نقدّم جزيل الشكر والعرفان .

Digitized by Birzeit University Library

التذكرات

Digitized by Birzeit University Library

تحدثت يسره عن طفولتها :-

كنت أبلغُ من العمر عاماً واحداً، عندما أجْلَسني والدي على حِجْره، واضعا يديه حول كتفيّ، وبجانبي وقفت شقيقتي مسرّة التي تكبرني بثلاث سنوات. أخِذَت صورة تذكارية لنا الثلاثة عام ١٩٢٤.

هذا أوّل تصوير أذكر أنني شاهدته عندما بدأت أعي ما حولي جيداً. وتَرْسخ في ذاكرتي صورة والدي، العالم الأزهريّ، الذي درس اصول العلم والدين والفقه في جامعة الأزهر، واعتمر العمة وقيل عنه مُعمّما. وعند تذكّري لشخصيته أشعر باحترام كبير ممزوج بمهابة وقوة وصلابة وعلم وثقافة.

أنْتَسِبُ إلى عائلة تبوّأت مجال العلم والدين، وتزّعمت مدينة نابلس في هذا المجال، بدءا بأجدادي الأوائل. مثل جدّي لأبي الشيخ حسن صلاح وانتهاءً بوالدي الشيخ عادل صلاح وأعمامي الاثنين الشيخ يوسف والشيخ محمد.

وكما أخْبِرْتُ أن والدي تزوّج عام ١٩١٤ من ابنة ابن عمه أمين مصلح صلاح. وكان الشيخ مصلح صلاح عالماً وضليعاً في الإفتاء. أقام جدّي لأمي في طولكرم لمباشرة أملاكه في عتّيل ومنطقة الشعراوية. وبسبب إقامته هناك تزوّج مرّة ثانية من ابنة رئيس بلدية طولكرم في ذلك الوقت "عبد الرحمن الحاج إبراهيم". وأخْبِرتُ أيضا أنه لم يمْضِ شهر على زواج والدي حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى.

امتلكت عائلة صلاح أراض كثيرة في منطقة قلقيلية ومنطقة يافا. لذا كان أبناء العائلة يعتمدون في معيشتهم على املاكهم التي ورثوها عن أجدادهم، وكانوا يعتقدون أن قيامهم بأعمال اخرى غير التفقه في الدين والعلم يغضب الله، فاكتفوا باشرافهم على أملاكهم وارتزاقهم منها.

Digitized by Birzeit University Library

حدثّني والدي أنه في ذلك الوقت، ارتبطت كل عائلة متنفّذة سياسيا بعلاقة وطيدة مع عائلة متدينة اتصفت بالعلم، فعائلة الخماش المتدينة كانت صديقة لعائلة عبد الهادي، وعائلة صلاح توثقت علاقتها مع عائلة طوقان وظلّت إلى يومنا هذا. وقد ورد ذكر لعائلة صلاح وعلمائها في كتاب المرادي "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر".

كان مَسْكَنُنا في البيت الذي بناه جدي الشيخ حسن صلاح، وهو إلى الغرب قليلا من المستشفى الوطني. وقيل لي أنه في الوقت الذي بُنِيَ فيه ذاك المسكن، كان عدد المساكن خارج حدود البلدة القديمة قليلا جدا، وكان معظمها منتشراً في الجبل الشمالي "عيبال"، مما أدهش معظم اهالي البلدة، فقالوا : "دار صلاح سكنوا مع الواويات". وكان البيت يقع على أرض ممتدة واسعة تصل إلى ما يسمى اليوم "شارع حيفا" وترتسم في خيالي ذكرى لأجزاء البيت، فهو مؤلف من طابقين، الطابق الأول عبارة عن مكان واسع يسمى "الديوان"، وهو عبارة عن مكان يلتقي فيه رجال البيت ورجال المدينة، شيوخها وعلماؤها. ولهذا الديوان رواق طويل، يُفضي إلى غرفة القهوجي، ثم بيت للخيل يقع ضمن الطابق الأول ويسمى "الياخور" لاستقبال الفرسان ولربط الخيول في الداخل. أما غرف النوم والجلوس فتقع في الطابق العلوي موزعة ما بين الجهة الغربية والشرقية.

تَغيب عن ذاكرتي صورة أهل البيت وأين يسكنون، فتحدثني شقيقتي مسرّة أن إحدى الغرف سكنها أحد أعمامي وهو الشيخ محمد صلاح وعائلته، وكان شيخا مُعَمّما من الأزهر، والغرفة الأخرى سكنها عمي الثاني الشيخ يوسف صلاح وعائلته. أما الغرفة الثالثة فكانت تخص والدي وعائلته، وضمّ البيت غرفة رابعة كانت تسكنها عمتي. وما بين الغرف صالون واسع كبير، معدّ خصيصا لمناسبات الأفراح والأتراح. وهذه الغرف واسعة جدا يبلغ كل من طولها وعرضها ٥،٥ م، وفي كل غرفة مساطب مرتفعة عن الأرض. بالاضافة إلى ذلك كان يوجد غرفة للضيوف مشتركة ما بين الأخوة الثلاثة، ومكان مخصص لمواقد الطبخ. وأمام البيت من الجهة الجنوبية، تمتد شرفة بطول البيت

Digitized by Birzeit University Library

وبعرض عدة أمتار، ويحيطها "درابزين". والشرفة تشرف على الحديقة التي تحيط بالبيت، والتي تمتد أرضها الواسعة إلى المنطقة التي بُنِيَت عليها محكمة البداية فيما بعد.

لم تَزَلْ رائحة الورد الجوري تملأ صدري إلى الآن، فلم يغب عن ذاكرتي منظره الجميل، وشجرة الصفصاف الكبيرة والسيسبان طيّب الرائحة والبيلسان والخشخاش والدوالي الممتد إلى شرفة البيت المقسومة بيننا وبين عائلة عمي من الجهة الغربية والشرقية.

تكبرني شقيقتي مسرّة بثلاث سنوات ونصف، ويصغرني شقيقي خالد بعام ونصف. توقّع والديّ أن ينجبا ابنا بعدي لأن ملامح وجهي كانت كملامح الصبية. كنت الابنة الصديقة لوالدي، أصحبه في ذهابه وايابه، أذكره بكل فخر واعتزاز وتعلّق كبير وحنان عظيم.

اذكر ديوان والدي العامر بالناس، تجمعهم الأحاديث الدينية والفقهية والصلاة، كانوا يأتون اليه ليسألوه في مسائل الدين والتشريع.وكان من أصدقائه العلماء الشيخ عمرو عرفات، والشيخ حسني العبوة، والحاج رشدي العالول.

في العهد التركي اختِيرَ والدي "مميّزاً"، أي مُمتحناً مع لجنة مكونة من عدة أشخاص يعقدون الإمتحانات الشفهية للطلاب. كما كان يطلب منه وضع أسئلة امتحانات الطلبة. ولا زلنا نحتفظ بأوراقه القديمة التي كان يُسَجِّلُ عليها أسئلة الامتحانات، حتى أن آذن من أذنة احدى المدارس قال لي يوما " الله يرحمه الشيخ عادل صلاح، هو اللي مرّقني"

أتذكر والدتي تقرأ القرآن الكريم. قراءة جيدة من حيث التجويد والنغم، فسألتها مرة من المرات، كيف وصلت بقراءتها إلى ذاك المستوى الجيد، فأخبرتني أن والدها لم يكتف بتعليمها القرآن في المدرسة، وانما أحضر لها

Digitized by Birzeit University Library

شيخاً جليلاً من علماء نابلس، يدعى الشيخ زكي أبو الهدى، علّمها وحفّظها القرآن مرة واثنتين وثلاثة، حتى أصبحت تتقن القراءة من حيث الحروف ومخارجها والوقف وما إلى ذلك. وكان خطها مقروءاً وواضحاً وكتابتها الإنشائية جيدة جدا. وقد حدثتني شقيقتي مسرّة عن والدتها أنها تعلمت في مدرسة كانت تديرها زكية خانم، زوجة سليمان طوقان، وأن احدى مدرّساتها تدعى "أم السعيد الطيباوي". وذكرت لي أختي أن والدتنا تلقّت من إدارة المدرسة مكافأة، وهي عبارة عن "مصحف" لتفوقها، ولا زلنا إلى الآن نحتفظ بمصحف والدتي المغطى بقماش مزين، وأذكر أنها ظلت تقرأ به حتى آخر أيام حياتها.

والدتي من النساء اللواتي اتصفن بالحكمة والتعقل لأنها تزوجت صغيرة السن واستطاعت العيش والتأقلم مع عائلة كبيرة. أذكر أن اشقاءها كانوا يستشيرونها في جميع أمور حياتهم، ومن فرط حكمتها وتعقلها ساهمت بشكل كبير في حث والدي على تعليمنا تعليما عاليا، وهذا الفضل لن أنساه ابدا. وهي من القلائل المتعلمات في ذلك الوقت، وكان والدي ووالدتي على الرغم من انجذابهم للمناحي الدينية على اهتمام بمواضيع أخرى من العلوم، فجمعوا واقتنوا العديد من الكتب ذات المواضيع المختلفة، والتي بقيت بحوزتنا حتى الآن.

كان والدي يتلو القرآن الكريم باستمرار، وبصوت مرتفع، فحفظنا عنه معظم الآيات، وأنا استغرب الآن، عندما أبدأ بتلاوة آية من القرآن الكريم أكملها للنهاية، وبشكل عفوي وسريع. كما وعلّمنا والدي التعاليم الدينية منذ الصغر، فكنا نصلي ونصوم منذ نعومة أظفارنا.

أتذكر والدي يُلِحّ بالإنتقال من بيتنا القديم، بسبب مسكننا المشترك مع أعمامي وأبنائهم. فانتقلنا في أوائل الثلاثينات إلى بيت يقع في الجبل الشمالي لمدينة نابلس في الجهة التي تقع شمال "راهبات مار يوسف". ومكثنا به مدة عامين، ثم بنى والدي مسكنا يقع في منطقة "خلة غانم". وأرض هذه الخلة

Digitized by Birzeit University Library

تمتد حتى المنطقة التي تقع بجانب بيتنا القديم، وتسمى "خلة الخمسان" وهي عبارة عن مكان للتنزه، كان يرتادها النساء والأطفال كل يوم خميس للتنزه وقضاء النهار. وكثيراً ما كنا نشاهد بائعي "الترمس والبزر" وهم يتجولون بين الناس. وشاهدت فيما بعد أن أوائل لاجئي عام ١٩٤٨ ينصبون الخيام في هذه الأرض.

لا أنكر أن شوارع المدينة كانت معبدة في ذلك الوقت. وكنت أشاهد بعض البيوت المبنية من "الزينكو" منتشرة حول بيتنا الجديد في "خلة غانم"، وقيل لي أن لاجئي زلزال عام ١٩٢٧ هم الذين أقاموها. وبقي بعضها موجوداً حتى الآن.

كنت وشقيقي خالد مُرْتَبِطَيْن ارتباطا وثيقا، حتى أن أقاربنا وجيراننا كانوا يسموننا الأخوة "التوأم". كنت أصنع له الطائرات الورقية، ليلعب بها في فناء البيت، وكثيرا ما نلعب لعبة "الاكس"، ولعبة "دقة واجري"، وهي لعبة قوامها الضرب على خشبة.

كان والدي يمنعنا من اللعب في الشارع كبقية أطفال الجيران، ولذلك كنا نضطر للبقاء في البيت للقراءة والمطالعة. كانت تصلنا تباعا المجلات المصرية مثل المقتطف والمصور والهلال، وتلمع في ذاكرتي صورتي وأخي خالد ونحن منبطحين على بطوننا نقرأ تلك المجلات.

كانت طفولتي وأشقائي خالية من المعاناة، ولكني كنت أسمع بين الحين والاخر والدي يشكو من سوء الأوضاع الاقتصادية ومن سوء التعامل مع المزارعين. وأذكر أنه فيما بعد اضطر لبيع قطعة أرض لتعليمي وأخي في أوائل الأربعينات في الجامعة الأميركية ببيروت.

كنا مجاورين لمدرسة الراهبات، التي تقع إلى الشرق قليلا من المستشفى

Digitized by Birzeit University Library

الوطني، فالتحقتُ بها بعد شقيقتي مَسَرّة التي سبقتني اليها بعام، لتَعَلّم الحساب والعربي والفرنسي والتطريز.

في عام ١٩٢٩ انتقلنا إلى المدرسة الفاطمية التي ضمت مستويات أربعة، المستوى التمهيدي، والأول والثاني والثالث. التحقت بالمستوى التمهيدي، والتحقت شقيقتي مسرّة بالمستوى الثاني بعد إجراء امتحان لنا لمعرفة قدراتنا. كانت مُدرّسة الصف التمهيدي ندى القمحاوي و مُدرّسة الصف الثاني ندى عبد الهادي، وأدارت المدرسة في ذلك الوقت مزيّن زعيتر.

تعلّمتُ سنة واحدة فقط في المدرسة الفاطمية ثم انتقلت وشقيقتي إلى المدرسة العائشية، وأتممت تعليمي حتى الصف السادس الابتدائي والذي سمي فيما بعد بالسابع الابتدائي.

تفوقت في المدرسة، أذكر أن مدرّساتي كنّ يسألن السؤال، ولا يجدن الا يسره لتجيب عليه. كان بيتنا بيت قراءة وعلم، وجميع الظروف التي أحاطت بنا هيئتنا تهيئة ممتازة لتلقي العلم. أذكر أن أخي خالد حفظ "قاموس الجيب" من أوله لآخره.

وحين أذكر مُدرّساتي في العائشية أشعر بالفخر والاعتزاز، "الله يرحمها ست صبرية" من المدرسات ذوات الكفاءة العالية، ومديرة المدرسة فخرية الحجاوي ذات الشخصية المميزة من حيث الجمال والمعاملة والادارة. وبعد فترة قليلة من الزمن انْتَقَلَتْ إلى العائشية ندى القمحاوي، حيث تفانت في عملها إلى الدرجة التي كنا نشعر بها ان العائشية مملكتها. وأذكر شيخا عَلّمنا حِفْظ وتفسير القرآن الكريم. ولم أكن بعد وضعت غطاء الرأس "الحجاب".

بعد أن أنهيت الخامس الابتدائي، وترفعت إلى السادس، دخلت مرحلة "ختمة" القرآن. ولختم القرآن تجري مراسيم واحتفالات. بالنسبة للفتيات، كنا

Digitized by Birzeit University Library

نلبس أجمل ثيابنا وتقام لنا "مباركة" لختم القرآن. وللذكور تُزَيّن الكراسي، ويُصَمّم هيكل خشبي يُزيّن بالأطالس والستان والأزهار الصناعية والطبيعية، ويُعلّق المصحف في مكان مرتفع بارز في البيت.

كنا عائلة بعيدة عن الاهتمام بالنواحي السياسية، ويرجع ذلك إلى تربيتنا المحافظة جدا والمتدينة. أذكر أن والدي كان يحرص حرصا شديدا على عدم انخراط أخي خالد في أي تجمع سياسي، اهتم بتعليمه فقط أذكر أنه درس أولا في المدرسة الهاشمية ثم الصلاحية، وقدم امتحان الإجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت.

أذكر أن شقيقتي مَسرّة التحقت بعد أن أنهت السابع الإبتدائي بدار المعلمات في القدس. واذكر أيضا أنني قدّمت طلبا لدار المعلمات بعد أن أنهيت المرحلة الإبتدائية، ولكن طلبي قوبل بالرفض، ربما لأن شقيقتي تدرس هناك.

كان مطمح كل فتاة في ذلك الوقت الالتحاق بدار المعلمات، فقد كانت تقبل النخبة القليلة فقط من الفتيات المتفوقات. جرى نقاش بين شقيقتي مسرّة ومُدرّساتها في دار المعلمات حولي وحول كفاءتي العلمية وتفوقي في الدراسة وتنوع ميولي، فأشرن عليها بارسالي للتعلّم في مدرسة الفرندز في رام الله.

أذكر أن إرسال الأهالي بناتهم إلى مدرسة "شميدت" في القدس كان سائدا في ذلك الوقت، لاعتقادهم أنها مدرسة محافظة، وأن مدرسة الفرندز أقلّ محافَظَةً منها. أذكر من الفتيات اللواتي تعلمن في " شميدت " رشدة المصري، سبأ عرفات، نزيهة عبد المجيد، ونبيهة طوقان.

واقتناعا بنصيحة معلمات "مسرّة"، ولطموحي الكبير للتحصيل العلمي،

Digitized by Birzeit University Library

وافق والدي على إرسالي إلى مدرسة الفرندز، مع أن ذلك لم يعجب الكثير من أهل البلد، لاعتقادهم أن "الفرندز" مدرسة لا تتمسك بالعادات والتقاليد المرعية في بلادنا.

كان اهتمامي بالدراسة والمطالعة يفوق كثيرا اهتمامي بالنواحي الاجتماعية الأخرى التي تعجب المرأة في ذلك الوقت، كالجلوس في "الاستقبالات". وهذه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت، وهي استقبال ربة البيت لعدد من صديقاتها وأقرباءها ومعارفها في يوم محدد من أيام الأسبوع. فلم يكن الاتصال الهاتفي متوفرا في ذلك الوقت، وكانت أكثر وسيلة للتعارف والحديث والمسامرة هي الجلوس في هذه الاستقبالات. وكان يجري في تلك الإستقبالات العزف على العود والغناء والرقص. غير أن هذا لم يكن ليحدث في بيتنا.

كان يحلو لي الجلوس في غرفتي وحدي مع كتبي، بينما شقيقتي مسرّة، الأكبر والأجمل، تجلس مع النساء. وأذكر أن مسرّة تحجّبت في سن مبكرة، بينما طال بي الوقت حتى وضعت الحجاب. كانت الفتيات في العادة يضعنه عند اقترابهن من سن البلوغ.

كانت النساء يتفنن في انتقاء الأثواب و حياكتها واختيارلون القماش. وكن يرتدين "الغطوه" مع "الكاب". أذكر أن والدتي كانت تنتقي لون الغطوة مشابها للون الكاب في معظم ملابسها. وفي رأيي أن ملابس النساء في الماضي كانت أجمل وأكثر أناقة من هذا العصر.

خان التجار ودكان قاسم كمال كنا نرتادهما باستمرار. نتجول بعض الأحيان في الخان، فنجلس عند صديق والدي الحاج قاسم كمال. أذكر أن التاجر المعروف الحاج سعيد كمال كان يرسل لنا القماش إلى البيت لنختار منه ما يعجبنا، إذ لم يكن من المألوف أن تذهب النساء إلى المتاجر في ذلك الوقت.

Digitized by Birzeit University Library

كنت أذهب مع أخي خالد إلى السوق مع اثنين من الخدم، أحدهما كان مسؤولا عن الديوان، والآخر عن خدمة البيت. بعد مدة استبدل الخادمين بصبي يقوم على خدمتنا وخدمة الديوان واحضار الأغراض من السوق.

كان بيت القمحاوي (الآن) هو مقر القيادة الانجليزية عام ١٩٣٦، وكنا نتجنب ونخاف النزول إلى الشوارع لمعرفة الأمور. أذكر الثوار، أثناء اضراب عام ١٩٣٦، يتجولون في كثير من مناطق المدينة، ويقرعون الأبواب لجمع التبرعات، وأذكر أنهم قرعوا باب بيتنا وفتحت لهم، وكان هذا يعتبر شيئا عاديا جدا. أتذكر حادثة أليمة وقعت اثناء ثورة عام ١٩٣٦، ففي يوم سمعنا أن الإنجليز أطلقوا رشاشاتهم على المارة في السوق في البلدة القديمة. وكان ابن خالي «إحسان نديم صلاح» البالغ من العمر ست سنوات في موقع الحادث، استشهد على الفور وبيده دفتر وقلم.

ما سمعته من أهالي نابلس عن أن مدرسة الفرندز ذات صبغة أميركية لم أجده داخلها أبدا. بالعكس، وجدتها مدرسة تلتزم جانب المحافظة أكثر من مدارس القدس، لأن مجال الإنطلاق في مدينة كالقدس كان رحبا، بينما رام الله كانت في ذلك الوقت عبارة عن بلدة صغيرة.

ذهبت محجبة إلى مدرسة الفرندز وبصحبتي سجادة صلاتي وبرفقة والدي ووالدتي. أوصى والدي مديرة المدرسة "فكتوريا حنوش" إلى التنبه ومراقبة التزامي بالقيام بالواجبات االدينية من صوم وصلاة. فيما بعد وجدت أن استمراري بالصلاة كان صعبا ضمن جو المدرسة فلم أستطيع الاستمرار بها. ولكني واظبت على صيام رمضان. والحقيقة أن المدرسة وفّرت لي كل ما يلزم لإعداد وجبتي السحور والفطور.

وجدت ادارة المدرسة أنني يجب أن أعيد الصف السابع، لأن مناهج

Digitized by Birzeit University Library

التدريس كان أغلبها باللغة الانجليزية، وهي أقوى من مناهج االمدارس في نابلس. وكانت مدة الدراسة في المدرسة ثلاث سنوات، ولكني قضيت بها أربع سنوات، بسبب اعادتي للصف السابع.

للمدرسة قوانين ونظم ولوائح، من ضمنها عدم الخروج بتاتا من المدرسة وعدم زيارة الأهل الا في نهاية كل فصل، ومدة الفصل ثلاثة شهور. لم يكن يسمح بالاختلاط بين الذكور والاناث، الا في نهاية كل سنة خلال احتفالات التخرج. وفي كل يوم أحد من كل اسبوع، كانت الطالبات تذهبن للصلاة في كل صباح. وبعد الظهر تأخذنا المشرفة في نزهة في شوارع رام الله البعيدة عن وسط المدينة. وفي المساء كنا نجتمع في غرفة نستمع إلى قراءة قصة مما عوّدنا على حسن الإستماع والإستيعاب.

أعجبني أسلوبهم في التدريس والتربية، فقد كان الاهتمام بالتربية المنزلية كبيرا جدا، وكان هذا مثار اعجاب الأهالي وتشجيعهم لارسال بناتهم إلى "الفرندز" لتعلم الاقتصاد المنزلي. كنا نتلقى دروسا غير منهجية مثل الخياطة والموسيقى والرسم. أذكر مرة من المرات، طلبت منا مُدَرّسَة الاقتصاد المنزلي رسم خريطة للبيت الذي نطمح أن نسكن به في المستقبل. ولا أزال أحتفظ بخريطة البيت الذي رسمته لنفسي.

كان يوجد اهتمام بالتمثيل واخراج المسرحيات. وأذكر أن جنان عبد الهادي، قامت بتمثيل دورالفراشة في إحدى المسرحيات، فأصبحنا نسميها "فراشة".

كنت من المقربات جدا إلى مديرة المدرسة "فكتوريا حنوش" بسبب تفوقي وإلمامي بكثير من المواضيع. كنت وصديقتي سلمى الشوا من المرضي عنهن من قبل مديرة المدرسة، بسبب اجتهادنا وميلنا للزراعة والعناية بالأزهار. فكانت تسمح لنا بالتجول في حديقتها الخاصة وقطف بعض الأزهار وتنسيقها.

Digitized by Birzeit University Library

والعناية بالأزهار والنباتات من هواياتي التي أمارسها حتى الآن. ومكتبتي تضم عدداً لابأس به من الكتب والموسوعات حول النباتات والعناية بها.

كان ارتباطي شديدا بالمدرسة. وبقي تأثيرها قوي عليّ بسبب مناخ عدم التَزَمّت وقوة المنهج والأسلوب والترتيب والتنظيم الدقيق.

أكثر ما كان يعجبني ويؤثر في شخصيتي ذاك الترتيب الذي كانت تتبعه المدرسة في ترتيب لقاء المدرسات بالطالبات على وجبة الغذاء. فتجلس المدرسة على رأس الطاولة وتحاول التحدث إلى الطالبات، وتتغيّر هذه المدرسة كل أسبوع. وعندما يحين موعد وجبة العشاء، تقوم طالبتان منا على خدمة المعلمات اللواتي كن يتناولن عشاءهن لوحدهن، وكنا نتناوب على هذه "الوظيفة" كل أسبوع.

كانت رام الله في ذلك الوقت بلدة صغيرة هادئة. وكان التنزه مسموح لنا يوم الأحد فقط مع المشرفات على القسم الداخلي. لم أعرف البلدة عن كثب ولم أتجول بها، كنا نذهب في مشوار صغير حولها.

شغفي لتَعَلّم اللغة الانجليزية شديد جدا، بدأ هذا الشغف مبكرا، عندما حاولتُ وشقيقي خالد الاشتراك في مجلات انجليزية مثل مجلة "The Crusader"، التي احتوت ألغازا وقصصا. كنا نحاول التعرف على الكلمات من خلال القواميس. ودَعّمتَ دراستي في مدرسة الفرندز محبتي للغة الإنجليزية، حيث دُرّسَت المناهج جميعا باللغة الانجليزية. كان المُتّبَع في المدرسة التحدث طوال النهار باللغة الانجليزية. وفي نهاية اليوم، تقول الطالبة اذا خالفت ذلك أم لا. واذا لم تخالف، استحقت جائزة. وكنت من الطالبات المتفوقات في هذا المجال، فقد حصلت في مرة من المرات على جائزة وهي عبارة عن كتاب (حياة بايرون) ولا زلت أحتفظ به إلى الآن.

Digitized by Birzeit University Library

تعليم اللغة العربية كان قويا جدا، وكانت وديعة شطارة مدرسة اللغة العربية، تُنَظّمُ مسابقات بين الصفوف، وتضع أسئلة عامة، وتُنَظّمُ برامج لقراءة كتب، واعداد تقارير عنها، أو جمع معلومات عن اي موضوع. علّمتنا الحرية في التفكير والاجتهاد.

فكتوريا حنوش، مديرة المدرسة، شخصية رائعة وقوية، تخافها الطالبات من غير أن توبخ احداهن،فاذا سمعت ضجيجا، تدخل إلى الصف وتقول عبارتها المشهورة باللغة الانجليزية، وهي مقتبسة من رواية "الملك لير" لشكسبير: "الصوت الهادىء غير المزعج هو اجمل شيء تمتلكه الفتاة الناضجة"، وتذهب، فتصمت الطالبات جميعهن. وأذكر عبارة مأثورة باللغة الانجليزية كانت ترددها باستمرار للطالبات، «ليس المهم ماذا نقول، ولكن كيف نقوله».

كانت تربطني بزميلاتي علاقات حميمة وصديقة، وظلّت إلى اليوم، ومنهن عايدة عودة، وأخرى من شرق الأردن تدعى أنيسة نصر.

تُعِدّ مدرسة الفرندز طالباتها ليكملن تعليمهن في كلية البنات في بيروت، ومن ثم تأهيلهن للمتابعة في الجامعة الأميركية في بيروت. في حين أن الطلاب والطالبات الذين يريدون متابعة تعليمهم في الجامعات المصرية، عليهم دراسة التوجيهي المصري بعد نيل شهادة الاجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني. وفيما بعد اقترح د. قدري طوقان (مدير كلية النجاح) أن يكون مكان انعقاد التوجيهي المصري في نابلس أو القدس، بدل أن يكون في القاهرة وقال : إلى متى سيظل طلابنا يذهبون إلى مصر لتقديم امتحان التوجيهي. وبفضل مساعيه الحميدة، استطاع أخذ موافقة وزارة المعارف المصرية لعقد الامتحان في نابلس، لأن الكثير من الطلاب يعانون من تكلفة أداء الامتحان في القاهرة.

بالنسبة للفتيات، لم يكن باستطاعتهن الالتحاق بمدارس ثانوية لعدم

Digitized by Birzeit University Library

توفر هذه المستويات لهن، فمعظم اللواتي يكملن السابع الابتدائي، كن يتعلمن الخياطة، وقسم منهن يعددن انفسهن كربات بيوت، والقلة القليلة منهن يذهبن للتعلم في مدرسة شميدت أو الفرندز. والنخبة المتفوقة، كما ذكرت سابقا، تلتحق بدار المعلمات في القدس.

كانت دار المعلمات في القدس، هي المدرسة الوحيدة التي تستقبل الفتيات اللواتي أنهين السابع الابتدائي بتفوق وكفاءة، ليكنّ مؤهلات وقادرات على التعليم في المدارس بكفاءة عالية، أذكر منهن شقيقتي مسرة، صبيحة عرفات، نهيدة يعيش، لمياء طبيلة، بشرى الأدهم.

في تلك الأثناء، كثيراً ما كنت أذهب مع والدي وأحد الجيران لتوصيل شقيقتي إلى دار المعلمات. وعندما تريد العودة، كنا نتبع نفس الوسيلة لاعادتها، حتى أصبحت تذهب وتعود برفقة زميلاتها.

في عام ١٩٣٨، تخرجت شقيقتي مسرة من دار المعلمات في القدس وابتدأت حياتها المهنية كمُدَرّسة في المدرسة الخديجية في نابلس. أذكر أن الجيش البريطاني احتل بعض المدارس في ذلك الوقت ومنها المدرسة الخديجية، فانتقلت الهيئة التدريسية إلى مدرسة الخنساء لمدة مؤقتة. في تلك الأثناء وصل شقيقي خالد في تعليمه إلى نهاية المرحلة الثانوية، واستعد لتقديم امتحان الاجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني في كلية النجاح. وأذكر أن أسئلة امتحان الثقافة العامة كانت صعبة جدا، وأن دائرة المعارف في القدس كانت هي المشرفة على تأدية ذلك الامتحان. فيما بعد أتم شقيقي تعليمه في الجامعة الأميركية في بيروت وتخصص بالتاريخ.

تخرجت من مدرسة الفرندز عام ١٩٤٢، وتابعت دراستي في كلية البنات في بيروت. لم يكن التحاقي في الكلية صعبا، لكونها كلية بنات أولا، ولتفوقي وايمان والديّ العميق بالعلم ثانيا.

Digitized by Birzeit University Library

فترة الدراسة التي قضيتها في كلية البنات في بيروت كانت من أمتع فترات حياتي. فقد كوّنت صداقات حميمة، وحظيت بتقدير الإدارة والمدرسات، وانتخبت لأكون رئيسة المنزل "Home President" في مجلس الطالبات، ونُقِشَ اسمي على لوحة الشرف.

كان ميلي للغة الانجليزية بارزا جدا وتفوقي بدراستها أيضا، وساعدني على ذلك مطالعتي المستمرة للكتب الانجليزية والقصص الانجليزية، أثناء تواجدي في مدرسة الفرندز في رام الله.

كانت مدة الدراسة في كلية البنات سنتان. وكان أمام الطالبات خياران فيما يتعلق بمتابعة دراستهن، فاما أن تتخصص الطالبة بدراسة الرياضيات والاحصاء، فتستطيع الالتحاق بالجامعة الأميركية، أو أن تكتفي بشهادة الكلية الجامعية ومدتها سنتان، فتتخصص بدراسة العلوم المنزلية والاقتصاد. ومع أنه لم يكن لدي أمل واحد بالمئة أن ألتحق بالجامعة الأميركية، الا أنني تخصصت بمادتي الرياضيات والاحصاء، أملة أن تتغير الأوضاع وتتطور الأمور فيما يتعلق باقتناع الأهل والمجتمع بضرورة تعليم الفتيات تعليما عاليا.

اجتزت التخصصين بكفاءة، ومع نجاحي هذا، أعدَدْتُ نفسي لمعركة كبيرة سأواجهها في نابلس، وكنت ألح كثيرا في مساءلة نفسي كيف سيقتنع أهلي بعودتي للجامعة الأميركية ؟!.

لن أنسى فضل والدتي وحكمتها في اقناع والدي بضرورة التحاقي بالجامعة. واقتنع والدي، وقرر إرسالي إلى الجامعة، رغم سخط وغضب أهل البلد، جاءوه متذمرين ساخطين يقولون: " ياسيدي أوّل ناس يعملوها، أهل العلم ودار العلم" أجابهم: "أهل العلم هم الذين يقدّرون العلم". قالوا: "يا سيدي هدول هناك بُرُقْصوا". أجابهم:" وهمّ هون ما بُرُقْصوش".

Digitized by Birzeit University Library

اقتنع والدي بضرورة اتمام تعليمي، وحَمّلني مسؤولية كبيرة لمواجهة أهل البلد في عاداتهم وتقاليدهم، فقد كنت الأولى من بين الفتيات النابلسيات اللواتي ذهبن للجامعة. وحقيقة أنني تصرفت تصرفا وسلكت مسلكا واضحا جدا يتماشى وينسجم وعادات مجتمعي، لأحظى برضى الجميع، وأعتبره الآن مسلكا ضغطت على نفسي به. لم أسمح لنفسي بالاختلاط كما تفعل الفتيات جميعهن، ولم أنتسب لأية نواد رياضية. وتمسكت بتقاليد بلدي وعائلتي. وكنت اعتقد أنني بفعلي ذلك، سأفتح الطريق أمام غيري من فتيات نابلس للخروج والتعلم بالخارج. وقد حققت هذا فعلا، وما أصعب تحمل ذاك العبء، فهو خطير جدا، كنت أشعر أن الجميع يراقبني أينما ذهبت وأينما وُجِدت. كان كفاحي من أجل العلم شديدا جدا وعظيما جدا، ولم أنس كلمة والدي "أهل العلم هم الذين يقدرون العلم". تبعتني ابنة خالي لبيبة، في بادىء الأمر تشجع خالي لارسالها إلى مدرسة الفرندز ثم إلى الكلية فالجامعة الأميركية. و أصبحت لبيبة فيما بعد شخصية مرموقة، وتبوأت مركزا كبيرا في اليونسكو.

تخصصت باللغة الانجليزية كفرع رئيسي، وتخصصت فرعيا بمادتي العربي والتربية، لأهيىء نفسي وأعدها للتعليم في المدارس عند عودتي إلى نابلس.

من أساتذة الجامعة الذين أثاروا اعجابي وافتخاري د. قسطنطين زريق. لن أنسى قط جملته المشهورة المقتبسة من حديث لعلي بن أبي طالب "كلّ وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فهو يتسع". وقد سجّل لي هذا القول المأثور بخط يده في دفتر تذكراتي.

ساد الإتجاه القومي بين صفوف الطلبة والأساتذة في ذلك الوقت، وتزّعم د. قسطنطين زريق ذلك الإتجاه، فقد شكّل مجموعة "العروة الوثقى"، وصاحبه في ذلك د. نبيه أمين فارس الذي كان يُدرّس التاريخ، وهو من نشطاء الحركة

Digitized by Birzeit University Library

القومية العربية، وله مقالات ومؤلفات في هذا المجال كثيرة جدا.

من الطلبة الذين أذكرهم في الجامعة، وليد القمحاوي في كلية الطب، وعبد الغني العنبتاوي في كلية الصيدلة، وعدنان العنبتاوي كان يدرس إدارة الأعمال. أذكر سامي العلمي من غزة، درس إدارة البنوك، وهو الآن يحتل مركزا كبيرا في البنك العربي، وتزوج فتاة من صيدا من عائلة عسيران. وأتذكّر محمد يوسف نجم من قرية المجدل ، برع في إخراج المسرحيات، ونال درجة الدكتوراه فيما بعد.

كانت تربطني علاقات صداقة حميمة مع عدد من زميلاتي، وكان زملائي والأساتذة يسموننا "سردين" لشدة ارتباطنا ولكثرة لقاءاتنا. دمية وهالة السكاكيني (بنات الكاتب خليل السكاكيني) كانتا زميلتيّ في الكلية والسكن. وأذكر صديقة من القدس، يونانية الأصل وتقع بقّالة أبيها في شارع مأمن الله في القدس، وتدعى جان زافيريادس، وعايدة عودة من رام الله التي تخرجت بعد سنة من تخرجنا، وماري حنانيا وسلمى الخضرا (الأديبة والشاعرة المعروفة)، ونهى الحلبي من يافا. رافقتنا في الدراسة طالبتان يهوديتان من تل أبيب وحيفا، وشاركتانا السكن الداخلي. أذكر واحدة منهما اهتمت بدراسة اللغة العربية، لأنها أرادت أن تعمل مع عرب عند عودتها. وأخرى لئيمة جدا، وتدعى (مارجوت جولدمان) كانت تدرس الطب. أذكر مشادة بينها وبين صديقتي عايدة عودة، اختلفن على حجز "الحمام" في القسم الداخلي. كان الدور في الاستحمام لعايدة، واحتلت مارجوت الحمام، فصرخت بها عايدة، قائلة باللغة الإنجليزية: "هل هذا فلسطين لتقومي باحتلاله؟".

يلمع في ذاكرتي وجه مارجوت اللئيم، في ذكرى وعد بلفور ١٩٤٥/١١/٢ حيث خرجنا بمسيرات حاشدة في تاريخ ذاك اليوم. وأذكر أننا ارتدينا في تلك المناسبة لباسا موحّدا وهو عبارة عن "تنورة كحلي وبلوز أبيض". وأذكر أن مارجوت كانت تلبس نفس الألوان صدفة. وعندما رأتنا بذاك

Digitized by Birzeit University Library

اللباس ولتلك المناسبة، عادت وخلعت ملابسها فورا، وارتدت ملابس بألوان أخرى.

من الطالبات المتفوقات العراقيات، أذكر سلوى الحصري، ابنة الكاتب الكبير ساطع الحصري. وهند قدري، تخصصت باللغة الإنجليزية وكان والدها يعمل سفيرا للعراق في لبنان.

كنت عضواً في نادي المناظرات "Debating Club" في الجامعة. وكانت تجري مناظرات وحوار بين فريقين لمناقشة مواضيع مختلفة. أذكر إحدى المناظرات حول دور المرأة في المجتمع. اشترك في هذه المناظرة نمر طوقان من كلية الطب، وكان دوره ضد المرأة، وتساءل: "كيف تستطيع المرأة الخروج والمشاركة بالعمل خارج البيت، وهي تخشى السير وحدها في شوارع بيروت الساعة العاشرة ليلاً"؟. كنت من الذين علّقوا على قوله، فقلت متسائلة: "هل يمكن لحضرة المتكلّم أن يشرح لنا لماذا تخشى المرأة السير في الشوارع ليلاً"؟. لاقى تساؤلي هذا استحساناً من الحضور.

لرغبتي الشديدة في المشاركة بالأمور الثقافية شاركت في نشاطات عديدة، ولكني مع ذلك وضعت نفسي في "قمقم" فأنا "ابنة الشيخ".

كنت أنتظر اجازة الصيف بفارغ الصبر كي أعود إلى نابلس، ومع اشتياقي الكبير لبلدي الا أنني كنت أجِدُني بعيدة عن عادات مجتمعي، أنزوي دائما في غرفتي أقرأ وأطالع، بينما شقيقتي مسرّة ترافق والدتي في كثير من الزيارات.

تخرجت من الجامعة الأميركية في عام ١٩٤٦، وعدت إلى نابلس. كنت أسمع أن العصابات الصهيونية تقوم بالأعمال الإجرامية ضد العرب لإرغامهم على الرحيل، كما كانت تنسف البيوت والمكاتب الحكومية. ومن لا يذكر نسف مبنى فندق الملك داوود عام ١٩٤٦، حيث كان مقر الإدارة البريطانية، وإزهاق

Digitized by Birzeit University Library

أرواح العشرات من العرب والأجانب. أذكر من ضحايا هذا الحادث شقيق أولغا وهبة.

وعن حياتها المهنية تحدثت يسره:

قدّمت طلبا إلى دائرة المعارف في القدس، كي ألتحق بوظيفة معلمة في احدى مدارس نابلس. استدعوني لمقابلة مديرة دار المعلمات لأعلّم لغة عربية فيها، كبديلة لسلمى الخضرا الجيوسي التي تركت المدرسة بسبب الزواج. رفضت العرض، لأن تخصصي هو لغة انجليزية، ولأن هدفي كان تعليم اللغة الانجليزية في نابلس (بلدي الأم)، لارتباطي الشديد بها ولانتمائي القوي اليها. وكنت أعتبر هذا مهما جدا بالنسبة لي.

عُيّنْتُ مدرّسة لغة انجليزية وعربية في المدرسة العائشية. كانت معظم المدارس عبارة عن أبنية مستأجرة، أما المدرسة الفاطمية فقد كانت الوحيدة التي أقيمت خلال عهد الأتراك لتكون مدرسة. وكما أذكر فقد كانت تدعى المدرسة الرشادية. ضمّت المدينة أربع أو خمس مدارس ابتدائية، وكانت المدرسة العائشية هي المدرسة الوحيدة التي تعلم للصف الثاني ثانوي. وقد استؤجر مبنى المدرسة من عائلة البيطار. وفي السنة الدراسية ١٩٥٠/١٩٥١ انتقلت المدرسة العائشية إلى المبنى الجديد الذي أقامته بلدية نابلس، بعد أن أقامت مبنى المدرسة الصلاحية للذكور.

وفي معرض هذه التذكرات أود أن أذكر أن أهل نابلس بادروا منذ عام ١٩١٨ إلى فتح المدارس، فأسسوا مدرسة النجاح، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة التي تقبل الطلاب بعد تخرجهم من المدرسة الصلاحية، وكانت مرتبطة مع الجامعة الأميركية في بيروت. كان المستوى التعليمي في مدرسة النجاح جيد جدا، يأتيها طلاب من جميع الدول العربية، بها عراقة متميزة واستمرت كذلك وتطورت إلى أن أصبحت جامعة.

Digitized by Birzeit University Library

في بداية الأمر لم أعلّم لغة انجليزية لمعظم الصفوف في المدرسة العائشية، فقد أقنعتني مديرة المدرسة، بالإكتفاء بتعليم اللغة الإنجليزية لصف واحد فقط، لأن سبأ عرفات كانت تُعلّم اللغة الإنجليزية لثلاثة صفوف، وهي المعلمة القديرة المعروفة. وعلّمت اللغة العربية لصفين آخرين. تعبت كثيراً في التحضير لمواد اللغة العربية، وبذلتُ أضعاف الجهد الذي احتجته لتعليم اللغة الانجليزية. فقد أحببت دائما أن أكون متمكنة من معلوماتي.

حين سافرت سبأ عرفات إلى بريطانيا عام ١٩٤٧ في بعثة دراسية من المجلس الثقافي البريطاني، أخذت نصابي كله لغة إنكليزية. شكّلَ هذا قمة سعادتي لأنني أحب التعليم إلى الدرجة التي أشعر أنه موجود بين خلايا جسمي. كانت تربطني بطالباتي علاقات وطيدة حميمة، أذكر منهن وسام عبد الهادي، نجاح عاشور، عدلة عرفات، هيفاء هاشم، طرب المصري، فدوى الحنبلي (شعلة ذكاء لا يوصف، وهي الآن استاذة في الجامعة الأردنية كما سمعت). كان هؤلاء من الصف الذي تقدم لإمتحان الإجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني عام ١٩٥٠، وكانوا أول دفعة تتخرّج من المدرسة العائشية. وقد اتيحت الفرصة لبعض الطالبات من الصفوف الأخرى لمتابعة دراستهن في كلية البنات الأميركية في بيروت وفي القاهرة، مثل ناديا خوري وليلى الكيلاني، وإنصاف عرفات (وهي الآن طبيبة)، وزينب هلال (وهي طبيبة أسنان ناجحة). كانت تصلني منهن رسائل شكر وتقدير لتفوّقهن باللغة الإنجليزية.

تميزت الدراسة في المدرسة العائشية بكثرة النشاطات اللامنهجية مثل اعداد صحيفة حائط، واعداد مجلة باللغة الانجليزية، وقراءة القصص الأجنبية. حدثتني احدى طالباتي، نادية خوري، ممن تخرجن من الكلية الأميركية في بيروت، أن اساتذتها كانوا يسألونها دائما من أي مدرسة تخرجت، وعندما كانت تجيب المدرسة العائشية، كان ذاك أمرا لا يصدق، لأن مدارس الحكومة لم تكن على ذلك المستوى.

Digitized by Birzeit University Library

أذكر من زميلاتي في المدرسة العائشية انعام عبد المجيد، نهى البيطار، لواحظ عبد الهادي، سبأ عرفات، سلوى عاشور، هيفاء ملحيس، وعفاف عرفات.

لم يكن سهلا علي أن أتعرف على الحياة الاجتماعية في البلد، لأننا كعائلة كنا شبه منعزلين عن الناس. والعلاقات الاجتماعية والنشاطات كانت محدودة، فالمرأة كانت لا تزال محجبة في ذلك الوقت، وبقيت أضع الحجاب حتى عام ١٩٥٢. أذكر أنني عندما سافرت إلى الولايات المتحدة لدراسة الماجستير، كنت أضع الحجاب وعدت بدونه ولم ألق أي احتجاج.

كان التعليم محدودا جدا بالنسبة للفتاة في زمن الانتداب البريطاني، وقد لمست هذا عندما أصبحت مُوَجّهة للغة الانجليزية فيما بعد. كنت أجد فتيات في القرى تبلغ أعمارهن ما بين اثني عشر عاما وثلاثة عشر عاما في الصف الأول الابتدائي.

توقفت جميع المدارس عن العمل في أواخر عام ١٩٤٧، أي بعد قرار التقسيم وما نتج عنه من اضطرابات استمرت حتى عام ١٩٤٨. حيث لجأ بعض سكان المدن والقرى التي استولى عليها اليهود إلى نابلس وسكنوا أبنية المدارس.

أغْلِقَت المدارس لفترة من الزمن بسبب لجوء الأهالي اليها. وقد رأى أحمد طوقان مدير المعارف آنذاك بضرورة إيجاد حل لإعادة فتح المدارس. وبجهوده تمكّنت دائرة المعارف من فتحها في شهر كانون أول من عام ١٩٤٨، بعد أن تم تدبير أمر اللاجئين الذين أقاموا فيها.

أثناء توقّف المدارس عن التدريس، ودخول الجيش العراقي الى نابلس، تَطَوّعْتُ ومجموعة من نساء نابلس للتمريض في مستشفى أداره العراقيون

Digitized by Birzeit University Library

باشراف الدكتور أمين رويحة. كان عملنا ينحصر في مساعدة الجرحى الذين قدموا من جميع البلاد العربية. ولا زلت أذكر جريحا يمنيا، كان يبدو كهيكل عظمي.

لا زلنا جميعا نذكر قائد عراقي فذّ يدعى "علي" أنقذ منطقة جنين بكاملها. ومنذ ذلك الوقت، درجت عبارة "ماكو أوامر" لأن ذلك القائد رفض الانصياع للقيادة العراقية بعدم التقدم، وقد أنقذ منطقة كبيرة من براثن الاحتلال.

أذكر بكثير من الفخر والاعتزاز الحاجة عندليب العمد رئيسة جمعية الاتحاد النسائي في نابلس، ومن قبلها كانت مريم هاشم. كن يجمعن تبرعات شهرية من أهالي البلدة، وعيّنوا لذلك "جابية" تدور على المنازل لجمع التبرعات، وكان هذا المشروع يسمى "مشروع الشلن". وقامت جمعية الاتحاد النسائي بأعمال لا مثيل لها، رغم الامكانات البسيطة المتوفرة، وذلك بسبب التعاون الوثيق ما بين المشرفين على الجمعية وأهالي البلد. استأجرت الجمعية بيتا استخدمته لتوليد اللاجئات اللواتي لم يجدن مكاناً يلجأن إليه خلال الأوقات العصيبة. ومن نشاطات الجمعية قبل نكبة ١٩٤٨، استئجار بيت أعدّته ليكون مدرسة لمكافحة الأمية. وقد تَطَوّعتُ وابنة خالي لبيبة للتعليم في هذه المدرسة خلال العطلة الصيفية عندما كنا طالبتان في الجامعة الأميركية. أذكر أن تلك المدرسة كانت تقع في منطقة السكّة غربي نابلس.

تخرج شقيقي خالد في حزيران عام ١٩٤٧، ووجد عملاً في مطبعة الحكومة في القدس، وأحبّ أن ينتسب الى كلية الحقوق في القدس. ولكن بسبب وجود منظمات الارهاب الصهيونية، واعتداءاتها المتكررة على العرب من ناحية، وضغط والدته من ناحية أخرى، قرر عدم الاستمرار وعاد الى نابلس. بعد ذلك تقدّم بطلب الى التربية والتعليم، وعُيّنَ مدرساً للّغة الإنجليزية والتاريخ في المدرسة الصلاحية، والى اليوم لا زال طلابه يذكرونه بالخير. وكان

Digitized by Birzeit University Library

في وقت لاحق قد تقدم بطلب للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية الـ BBC. ووفق على طلبه. وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر، أرسل معتذرا عن قبول ذلك العمل لأن المسؤولين في الإذاعة البريطانية يمثلون أحد الفرقاء الذين اعتدوا على بلد عربي، وبالتالي لم يستطع العمل معهم. اعتذر رغم أنه كان شديد الرغبة في تلك الوظيفة.

كما ذكرت سابقا أعيد فتح المدارس في شهر كانون أول عام ١٩٤٨ بعد أن سعى لذلك المرحوم أحمد طوقان مدير المعارف. وأُخْرِجَ اللاجئون من المدارس التي كانوا قد التجأوا اليها. عدتُ لتدريس اللغة الانجليزية في المدرسة العائشية.

أذكرُ مرةً من المرات أن أحد المفتشين، قدم الى المدرسة وذهل من حفظ الطالبات لخطاب أنطوني من مسرحية جوليوس سيزر لشكسبير غيبا. وعلق على قدرة الطالبات في الحفظ الصحيح، كما أشار إلى أن مستوى المنهاج قوي. فأخبرته أن هذا هو المنهج المتبع.

عندما تَسَلَّمَتْ وزارة التربية والتعليم الأردنية زمام الأمور، بقيت المناهج الفلسطينية متبعة في مدارس الضفة الغربية لبعض الوقت. وجرى تغييرها تدريجياً حتى توحّدت مناهج الضفتين. ولا بد من الإقرار بأن مستوى المناهج الفلسطينية كان أعلى وأزخم.

طلبت مني طالباتي أن أعِدّ شرحي خلال الحصص في دوسية أسوة بما يفعله أساتذة المدارس الأخرى. كان جوابي أني أريد منهن أن يعتمدوا على أنفسهن، وأني أعلمهن للحياة لا للإمتحان.

في عام ١٩٥١ قرأت في الصحيفة أن القسم الثقافي في السفارة الاميريكية يقدم منحا للولايات المتحدة لدراسة الماجستير. تقدمت بطلب

Digitized by Birzeit University Library

التحاق، وقُبِلَت أوراقي، بدون الرجوع إلى وزارة التربية والتعليم دون تفكير بأن تلك هي الأصول المتبعة. لم أحصل على المنحة في ذلك العام، إذ يبدوا أن هناك كان من هو أحق مني بها. لكن في العام التالي تلقيت نموذج طلب منحة جديد من الملحقية الثقافية دون أن أطلب منهم تزويدي به. قمت بتعبئة الطلب، وأنجزت كل الإجراءات اللازمة. بعد فترة وصلتني رسالة تنبئني بحصولي على المنحة، وبأنه علي أن أغادر إلى أميركا في تموز ١٩٥٢. سافرت دون الإتصال بوزارة التربية، لا لسبب، وإنما بنيّة حسنة. كانت السفارة تمنح منحتين كل عام. كان زميلي في تلك البعثة ابراهيم العطور من شرقي الأردن.

وعن دراسة الماجستير تحدثت يسره:

سافرت الى الولايات المتحدة لإتمام تعليمي والحصول على شهادة الماجستير في تعليم اللغة الإنجليزية كلغة ثانية، ضمن منحة تسمى "Smith Muntd". كان في استقبال المبعوثين من مختلف أنحاء العالم، من فرنسا، ألمانيا وأقطار أوروبية أخرى، واليابان وتايلاند وغيرها، موفدون من المكتب المسؤول عن البعثات ،اخذونا في المساء لجولة في أحياء مدينة نيويورك. وفي اليوم التالي نزلنا إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الإفطار. وجلسنا لفترة ننتظر من يأتي لخدمتنا ولكن عبثا. ثم لاحظنا أن من يدخلون قاعة الطعام يذهبون إلى إحدى زاويا القاعة، ثم يعودون حاملين الصواني وعليها ما اختاروه من طعام. عندها تنبهنا إلى وجوب ذهابنا وحمل الصواني وإحضار ما نريده من طعام الإفطار.

أحسست بصدمة كبيرة لما شاهدته من فقر وتشرد وبطالة بين أوساط الناس في المدينة. ذهلت من منظر النساء والرجال والأطفال المشرّدين في الشوارع.

بعد قضاء بضعة أيام في نيويورك، عُيّنَ للمبعوثين أماكن يقضون فيها

Digitized by Birzeit University Library

مدة ستة أسابيع يستمعون إلى محاضرات حول الولايات المتحدة، تاريخها ونظمها وقوانينها والتعليم فيها. إضافة إلى رحلات ترفيهية في منطقة ولاية فرجينيا. قضينا فترة التعرّف هذه في كلية "وليام أند ميري" في المدينة التاريخية اللطيفة وليامزبرغ التي لا تزال تحتفظ بطابعها التاريخي من بيوت وأزياء وأسلوب حياة. كنا في هذه الدورة حوالي ثلاثين طالباً وطالبة. كان معنا مبعوثة من العراق تدعى ليلى فيضي (زوجة أحمد زكي اليماني الأولى). وقد توطدت عرى الصداقة بيننا إلى حد كبير، وبقينا على إتصال دائم لمدة طويلة. كما تصادقت مع مبعوثة إيطالية دعتني فيما بعد لزيارتها في جنوا حيث تقيم في إيطاليا. وقد لبيت الدعوة وسررت جداً في تلك الرحلة.

عرفت الشيء القليل عن الحياة الأميركية في جنوب الولايات المتحدة. لاحظت أن سكان الجنوب أكثر طيبة من سكان الشمال، وفوجئت بتفشّي العنصرية العرقية في المجتمع الأميركي. شاهدت مؤشرات عديدة وواضحة لهذا المرض الإجتماعي، على سبيل المثال أذكر عندما ذهبنا لمشاهدة أحد عروض مسرح صيفي فوجئنا بوجود بوابتين للدخول إحداها مخصصة للبيض والأخرى للسود. وعندما حاولنا الدخول من "بوابة السود" حوّلونا لبوابة البيض. وأذكر أحد الزملاء في الكلية وهو هندي الجنسية ذهب ليحلق شعره عند حلاق أبيض فرفض لأن بشرته داكنة. وعند ذهابنا لمصنع للدخان في شارلوتزفيل لحضور احتفال، لاحظنا وجود حمامين، أحدهما للسود والآخر للبيض.

أنهينا الدراسة التحضيرية، ووُزّعنا الى أماكن مختلفة في جامعات عديدة لمتابعة دراسة الماجستير. تقرر عودتي الى نيويورك. قبل عودتي اتصلت بحازم نسيبة وزوجته قدر المصري، كنت أعرفهما مسبقا وأردت زيارتهما في مدينة برنستون. استضافوني عدة أيام، واستمتعت كثيرا في تلك الفترة. لفت نظري أسلوب تنشئة المواطن الأميركي، وهو أسلوب يُنَمّي خصلة حب العطاء. شاهدت هناك على سبيل المثال مكتبة ضخمة نُقِشَ على مدخلها الخشبي أنها تبرع من خريجي جامعة برنستون لعام ١٩٥٠.

Digitized by Birzeit University Library

التحقت بكلية المعلمين التابعة لجامعة كولومبيا في نيويورك في أيلول عام ١٩٥٢. تمحورت دراستي حول كيفية تعليم اللغة الإنجليزية كلغة ثانية، بالإضافة الى مواضيع أخرى في التربية. تضمنت الدراسة أيضا برنامجا لزيارة العديد من المدارس لمشاهدة تطبيق التعليم في المدارس الثانوية.

لم تعجبني الأنظمة التربوية الأميركية داخل المدارس الأميركية، فقد شاهدت الطلاب والطالبات في سن الثانية عشرة يتحدثون داخل غرفة الصف وكأن الأستاذ غير موجود. وهذا لا يتفق بالطبع مع النظم التربوية التي تعلمناها. وقد تعودت أن أسيطر على الطالبات داخل الصف. وإذا لم أتمكن من ذلك، لاأستطيع متابعة التعليم.

شعرت كامرأة من نابلس بشعور غير إيجابي تجاه الإنفلات الإجتماعي الذي شاهدته. قلت لبعض الزميلات الأميركيات: أخجل كثيرا من إباحيتكم. أجابتني إحداهن: هذا هو الربيع ويعني الإنطلاق. قلت لها: هذا إنفلات؛ أعتقد أن هناك فرقا بين الحيوان والإنسان.

تضمن برناج الدراسة أيضا زيارات لمصانع ألعاب الأطفال، لعلاقة ذلك بالتربية، والنمو العقلي للطفل. وكنت أعِدّ الكثير من التقارير حول هذا الموضوع وأقدمها لأساتذتي في الجامعة.

استمتعت كثيرا بحصص الأدب الإنجليزي العالمي، وكنا نقرأ الكثير من القصص والكتب، ونقدم تقاريراً حول مضمونها. اتذكّر قصة باسم "عناقيد الغضب". للحقيقة استصعبنا تحضير تقارير حولها. لكننا أنجزناها وقدمناها للأستاذ. وعندما جاءت لحظة التقييم، حبست أنفاسي خوفا من إعادة كتابة التقرير مرة أخرى. فرحت عندما علمت أن تقريري قد قُبِل، في حين رفضت تقارير عديدة أخرى.

Digitized by Birzeit University Library

استفدت كثيرا من المناحي الثقافية داخل الجامعة، وفي المدن الأميركية أيضا. لم أفوت أي فرصة لمشاهدة فن من الفنون، سواء موسيقى، مسرح، محاضرات، أو ندوات.

أنهيت دراستي في حزيران من عام ١٩٥٢. لم أنتظر تسلّم شهادتي -لا توزع الشهادات على الخريجين خلال الإحتفال لكثرة أعداد الخريجين-، وطلبت من الإدارة إرسال شهادتي إلى عنواني في نابلس. ويعود تصرفي هذا إلى أن موعد رحلتي إلى غرب الولايات المتحدة قد حان. وكنت قد رتبت هذه الرحلة بمساعدة المشرف على برنامجي التعليمي والإرشادي، فزوّدني بعناوين عائلات ترغب باستضافة الطلاب الأجانب في الولايات المتحدة التي كنت أرغب في زيارتها بدءاً بمدينة نياغارا الواقعة قرب الشلالات المعروفة بنفس الإسم. ثم تنقّلت من ولاية إلى أخرى إلى أن حط بي الرحال في بلدة صغيرة قرب فينكس عاصمة أريزونا حيث اشتركت في حلقة دراسية "Seminar" عقدته جماعة "الفرندز" لمدة أسبوعين. وقد ضم هذا المؤتمر حوالي ثلاثين شخصاً من مختلف الجنسيات. كانت تلك الفترة من أجمل وأمتع الأيام التي قضيتها في أميركا.

لا أزال أذكر كم كنا نستمتع بمشاهدة الأمطار الغزيرة تسقط بالقرب منا لا فوقنا. وفي تلك الفترة قمنا برحلات ترفيهية فزرنا الـ "Grand Canyon"، وهو أعجوبة طبيعية في تركيبته وألوانه البنفسجية. كما زرنا محمية للهنود الحمر حيث أقمنا بينهم يومين. كانت حياتهم تقريباً بدائية وهم ماهرون في الصناعات اليدوية.

أثناء رحلتي هذه لاحظت أنه كلما اتجهنا غرباً تجد الناس أطيب وأبسط وأكثر وداً، وأقل اهتماماً بالأمور العالمية. في طريق عودتي إلى نيويورك توقفت أيضاً في ولايات مختلفة متخذة خط الولايات الوسطى هذه المرة. وكم

Digitized by Birzeit University Library

كانت سعادتي عندما التقيت بابنة خالي لبيبة في مكان دراستها في كانزس سيتي "Kansas City" بولاية ميزوري. إذ حصلت هي الأخرى على منحة لدراسة الماجستير بعد نصف عام من ذهابي أنا.

أثناء وجودي في مؤتمر الفرندز في أريزونا، تعرّفت إلى أحد المحاضرين وكان وزيراً للمعارف في نيومكسيكو. وقد دعاني لزيارة بلاده بعد الإنتهاء من المؤتمر. اعتذرت عن تلبية دعوته لأن وقتي لم يكن يسمح لي بذلك؛ إذ كان علي أن أعود إلى نابلس في أيلول حيث يبدأ العام الدراسي الجديد. عدت إلى نابلس في أيلول. توقّعت أن تتّصل بي الوزارة للإطلاع على ما قمت به في ذلك العام. لكن أحداً لم يسأل عني. عندها شعرت بالندم لتفويتي فرصة زيارة نيومكسيكو.

وعن تطور وظيفتها روت يسره:

عدت كمدرّسة للغة الانجليزية في المدرسة العائشية، أعَلّمُ ست حصص لصفين، وبقية الأيام كنت أداوم في مكتب التربية موجهة لمدارس البنات.

في تلك الأثناء بدأت السلطات الأردنية بدمج المناهج بين الضفتين، واتّبعت نظام توسيع التعليم في القرى بشكل أفقي. كانت النتيجة أن زادت نسبة التعليم بنسبة ٥٠٠٪ عما كان في زمن الإنتداب البريطاني. ويعود الفضل في ذلك الى مصطفى الدباغ وكيل وزارة التربية والتعليم آنذاك، فهو الذي أصدر قانون توسيع التعليم في مدن وقرى المملكة، إلاّ أنّ مستوى المناهج كان أدنى من المناهج السابقة. ويعود ذلك على ما أعتقد للتوسع الهائل في تطبيق سياسة فتح المدارس. وطبعاً شمل التدني في مستوى المناهج مادة اللغة الإنجليزية؛ فقد خُفّضَ عدد الحصص المخصصة لتعليمها، وتقلّص المنهاج المقرر لها إلى النصف.

كان اهتمامي كبيراً بالنشاط اللامنهجي لموضوع اللغة الانجليزية. وكنت

Digitized by Birzeit University Library

أشعر برغبة طالباتي الشديدة في ممارسة هذه النشاطات، مثل الاستماع الى موسيقى بيتهوفن وشوبان وموزارت عبر اسطوانات كنت أحضرها الى المدرسة، حيث كان الإستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية أحد هواياتي. أحببت أن أرتفع بطالباتي إلى مستوى تذوّق الموسيقى العالمية، وكتابة مقالات في المجلة الإنجليزية عن حياة شوبان وموزارت وغيرهما. لذلك أسّست نادٍ للغة الإنجليزية يهتم بالنشاطات المتعلقة بموضوع اللغة الإنجليزية. لم تكن هذه النشاطات تروق كثيراً لمديرة المدرسة، وكثيرا ما كانت تقول لي: "نحن هنا في المدرسة العائشية لا في الجامعة الأميركية في بيروت". ورغم كثرة ما كنا نختلف عليه فأنا لا أزال أحترمها وأقدّر تفانيها في عملها، فقد كان حرصها على العائشية يفوق كل تصوّر.

كانت فكرة تعييني موجهة لمدارس البنات، فكرة الأستاذ ابراهيم صنوبر (مدير التربية). لن أنسى فَضله ما حييت، اذ اقترح أن أقوم بهذا العمل، كأول امرأة تعمل موجهة. واقتراحه بتعييني موجهة كان نابعا من مواجهته للعديد من المشاكل التي تتعلق بالمُدَرّسات مما يستدعي وجود امرأة كموجهة لمدارس البنات.

في عام ١٩٥٥ عملت موجهة بوظيفة كاملة في مكتب التربية لمدارس الذكور والاناث. وفي تلك الفترة رُشّحتُ لأكون مديرة مركز تدريب المعلمات التابع لوكالة الغوث في نابلس.

كانت فكرة انشاء معهد للمعلمات فكرة تجريبية، ودارت حول تأسيسه وكيفية قبوله للطالبات مناقشات طويلة بين المهتمين في الأمر، هل تُقبل الطالبات اللواتي أنهين "المترك"؟ أم الطالبات اللواتي عملن في سلك التعليم لمعرفة مدى خبرتهن في التربية؟ جرت مراسلات بين وكالة الغوث ومديرية التربية والتعليم، وأصرّ أحمد طوقان الذي كان مستشاراً لوكالة الغوث في بيروت، أن يقام معهد المعلمات في نابلس.

Digitized by Birzeit University Library

تمت الموافقة على اعارتي من قبل وزارة التربية والتعليم الى وكالة الغوث لتأسيس وادارة المعهد. واستؤجر مقر له في مكان شرقي نابلس. جرى تعاون كبيربيني وبين زملائي في المعهد وطالباتي. كانت روح الود والأسرة الواحدة تسود المكان، وأعطيت الطالبات مصروفا شهريا يبلغ عشرون دينارا.

في نفس الوقت الذي أُنْشِيء فيه مركز تدريب المعلّمات في نابلس، أنشيء مركز لتدريب المعلمين في رام الله وكان مديره جميل البديري.

في عام ١٩٥٦ حدث العدوان الثلاثي على مصر، وانطلق طلاب معهد المعلمين في رام الله التابع لوكالة الغوث بمظاهرات ضد التحالف الثلاثي، وتبعهم في ذلك معهد المعلمات في نابلس ونتيجة لهذا أُغْلِقَ المركزان بحجة عدم توفّر الأموال لإتمام مسيرة المعهدين، واستمر اغلاقهما مدة تسعة أشهر. عدت بعدها إلى مركز عملي السابق موجهة في مكتب التربية والتعليم.

في الفترة التي عدت فيها إلى التربية والتعليم عرضت الوزارة علي الذهاب في بعثة على حساب اليونسكو لمدة ثلاثة أشهر أزور فيها بعض الأقطار الأوروبية، وأطلع على أساليب تعليم اللغة الإنجليزية. وقد وافقت ممتنة، لأن السفر والتنقل من أعز رغباتي. شملت تلك الرحلة ألمانيا وهولندا وانجلترا واسكتلندا.

قامت الحكومة الأردنية باعتقال جميل البديري، مدير مركز المعلمين في رام الله، وقامت بمضايقته بشتى الأساليب، فقد فرضت عليه إثبات وجوده في مركز الشرطة صباحا ومساء، بعد اعتقال دام أكثر من شهر، مما أدى الى رحيله عن البلاد. وفي رأيي أن ما حصل كان أكبر خسارة شهدتها المنطقة، لأنه انسان فذ ملم بالكثير من الفنون والعلوم.

Digitized by Birzeit University Library

قرّرت وكالة الغوث إعادة فتح مركزي التدريب في نابلس ورام الله، ولم أكن قد عدت بعد من رحلتي في أوروبا. لذلك تم تعيين إسعاف شقير لتجهيز المركز إلى حين عودتي. عندما وصلت، باشرت عملي مرة أخرى كمديرة لمركز تدريب المعلّمات. وعادت زميلاتي وزملائي من مصر ولبنان، وكذلك الأستاذ جميل سعيد الذي كان استاذاً في الكلية العربية في القدس. وكان قد لجأ إلى بيروت عام ١٩٤٨.

عندما عُيّنتُ مديرة لمركز تدريب المعلمات، واجهت نوعاً من عدم الرضا من زميلاتي في سلك التعليم لاختياري أنا بالذات لهذا المنصب، مع أنني كنت الوحيدة التي تحمل مؤهلاً جامعياً. وحاولن التشويش على علاقاتي مع زميلاتي في المركز. ولكنهن لم يفلحن لأن علاقاتي كانت حسنة وودية معهن.

في شهر نيسان عام ١٩٥٨، قرر الشنقيطي وزير التربية والتعليم الأردني، انهاء إعارتي لمركز تدريب المعلمات، واعادتي الى سلك التعليم.... هكذا "لا حضور ولا دستور". كان يقول "حدا عنده رغيف ويعطيه لغيره". شعرت بمرارة لأن السنة قاربت على نهايتها، والمعهد يحتاج الى شخص يديره بشكل جيد، ويملك خبرة في ذاك المجال.

جرت كثير من المراسلات بين وكالة الغوث في بيروت والوزارة بخصوص اعادتي مرة ثانية للمعهد. وحدث تذمر شديد من قبل طالبات المعهد لأن إنهاء اعارتي يحول دون تخرجهن، فقد كنت أعد معهن المذكرات التي يريدون تعليمها لطالبات المدارس. جميع هذه المحاولات باءت بالفشل أمام اصرار الوزير الشنقيطي. وعدتُ الى مكتب التربية للمرة الثالثة، ولكني بقيت أعمل متطوعة في معهد المعلمات لمساعدة الطالبات على التخرّج بالموعد المحدد.

في تلك الأثناء، حضر الى نابلس مسؤول عن وكالة غوث اللاجئين في

Digitized by Birzeit University Library

بيروت يدعى Dr. Van Diflin (وهو مستشرق يتكلم العربية الفصحى بطلاقة وقام بترجمة تفسير القرآن الكريم إلى الهولندية)، وأخبرني بتوفر مبلغ قدره ٧٥ ألف دولار، وهو منحة من وكالة الغوث لانشاء مركز دائم في نابلس لتدريب المعلمات. وأعطاني مهلة مدتها عدة أيام، لأستشير ذوي الرأي والخبرة لاختيار قطعة أرض لبناء المركز عليها.

سررت كثيرا لهذا، وعلمت بوجود قطعة أرض غير مستغلة تبلغ مساحتها ثلاثون دونما كانت ملكاً لكلية النجاح على ما أعتقد. توجّهت إلى المجلس البلدي وأبلغتهم برسالة "فان ديفلين" وبيّنت وجهة نظري حول أهمية إقامة مثل هذا المشروع، وعلى الفائدة التي ستجنيها البلد. كان الجواب "يجب أن نبحث الموضوع. عندها قلت «أللهم اشهد أني قد بلّغت".

يبدو أنه لدى بحث الموضوع من قبل المجلس البلدي في ذلك الوقت، قوبل عرض الوكالة بالرفض، لأنه اعتبر أمراً سياسياً له علاقة بتوطين اللاجئين.

عَلِمَت بهذا الأمر بلدية رام الله، فسعت وحصلت على قرض مالي، واشترت قطعة أرض في الطيرة. وبعد إتصالات مع الوكالة وافقت الأخيرة على إنشاء ما يعرف الآن بكلية مجتمع الطيرة. وهكذا انتقل مركز تدريب المعلّمات من نابلس إلى رام الله.

أذكر أنه لدى زيارتي لجامعة أدنبرة في اسكتلندا خلال بعثة اليونسكو، دعاني الأساتذة إلى غذاء معهم، وقدموني لأستاذ يدعى مستر كاتفورد كزائرة من نابلس. عندما سمع أنني من نابلس، كاد يقفز عن كرسيه وقال: "هل أنت حقا من نابلس"؟. وتابع "لقد كنت أعلّم الانجليزية في مدرسة النجاح سنة ١٩٣٦، وكنت أتمنى أن أرى فتاة تمشي في الطريق في ذلك الوقت، وأراك الآن هنا في أوروبا، هذا شيء لا يصدق". هذا ما قاله البروفيسور الانجليزي. وأود أن

Digitized by Birzeit University Library

أذكر هنا معلومة أرى أن من المهم جدا سردها، وهي أن كلية النجاح كانت منارة كبيرة للعلم والنشاطات الرياضية. كانت تقام مهرجانات لم يقم مثلها في أي بلد عربي. أذكر أستاذ الرياضة المشهور عبد اللطيف الحبال. كان جميع أهالي البلد تحتشد لمشاهدة تلك المهرجانات.

بعد انتهاء ارتباطي بالوكالة، عدت إلى عملي السابق موجهة لمدارس البنات (كانت إنعام المفتي قد عيُّنت مديرة لمعهد الطيرة). بعد فترة قصيرة عُرِضَ علي أن أقوم بالتوجيه في مدارس الذكور أيضاً. وافقت على ذلك، وأذكر أنني قلت لوكيل الوزارة أن دخولي إلى مدارس الذكور أقل خطراً من ذهابكم أنتم إلى مدارس البنات.

في إحدى زياراتي وزملاء لي لإحدى مدارس الذكور في القرى النائية، كان زميلاي في توجيه اللغة الإنجليزية، الأستاذ رشيد مرعي والأستاذ صادق عودة متغيبين. في المدرسة استدعيت مدرس اللغة الإنجليزية وتحدثت معه قبل دخولنا الصف. يبدو أنه استهجن أن تقوم امرأة بالتوجيه، فقال لي: "وأين الأستاذ صادق، وأين الأستاذ رشيد"؟ أجبته: "أنهما لم يتمكنا من القدوم معنا". وهكذا ارتاح إليّ المدرس واطمأن.

كانت العادة أن تدعوا المدارس أحد الشخصيات أو الموجهين لإلقاء كلمة في حفل تخريج طلابها مثل دار المعلمات في رام الله، ومدرسة راهبات مار يوسف في نابلس وغيرها. لكن الشنقيطي اعترض على اختيار رجال لإلقاء هذه الكلمة في مدارس البنات وكان يقول «ما هاي يسره صلاح قاعدة في نابلس، ما تروح تلقي الكلمات». وهكذا كان، فقد تلقيت دعوة من راهبات مار يوسف لإلقاء كلمة في حفل الخريجات.

كان من المعروف أن طالبات مار يوسف كن نوعاً ما أكبر سناً من زميلاتهن في مدارس الحكومة. وكانت كل من تتخلّف عن تكملة دراستها في

Digitized by Birzeit University Library

السابق، وترغب في إتمام تعليمها والحصول على شهادة التوجيهي، تنتسب إلى مدرسة راهبات مار يوسف، لأنه لم تكن هناك قيود على سن الطالبات فيها. أذكر أنني خاطبت الخريجات على أنهن أمهات المستقبل. بعد أن انتهاء الحفل همس بأذني الأستاذ طلعت السيفي مدير التربية في نابلس في ذلك الوقت، وكان معروفاً بروح النكتة التي يمتلكها قائلاً: «تقولين أمهات المستقبل ـ قولي جدات المستقبل»! فيما بعد شاركتني في هذه المهنة الدكتورة رشدة المصري،وكانت قد بدأت حياتها المهنية بعد أن تخرجت من "الشميدت" في المدارس الإبتدائية ثم في المدرسة العائشية، ثم انتُدِبَت لتكون موجهة لغة إنجليزية في مكتب وكالة الغوث في المدينة. وبع أن انتهت فترة انتدابها من وكالة الغوث انتقلت إلى مكتب التربية والتعليم لتكون موجهة لغة إنكليزية.

صدر قرار عام ١٩٦٠ من قبل "الشنقيطي" وزير التربية والتعليم الأردني آنذاك، يقضي بفصل الموجهات عن الموجهين في مكتب التربية والتعليم . فبدأت الدوام في المدرسة الفاطمية القريبة من مكتب التربية، وظل الحال هكذا حتى تغيرت الوزارة الأردنية وعادت الأمور الى ما كانت عليه سابقا. وفي رأيي أن عملية الفصل كانت تصرفا غير منطقي من قبل الوزارة الأردنية التي رئسها الشنقيطي. فكيف سأتوجه للمدارس بدون أن أذهب أولا الى مكتب التربية لأعرف الى أين سأذهب؟!

من جملة قرارات الشنقيطي العشوائية، عدم توظيف المرأة المتزوجة في سلك التعليم. ولِيُكْرِه المعلمات المتزوجات اللواتي توظّفن في السابق على الإستقالة، قام بنقلهن إلى أماكن نائية. أذكر منهن جميلة نصار، عايدة فخر الدين، شادن أبو حجلة وكثيرات غيرهن. لم تتحقق أمنية الوزير باستقالة المتزوجات جميعهن، إذ لم يستقل منهن إلاّ القليل. وعندما تغيّر الوزير، عاد كل شيء إلى نصابه.

في سياق الحديث عن الشنقيطي أذكر أنه في عام ١٩٦٠، تسلّمت دعوة

Digitized by Birzeit University Library

بصفة شخصية من فرع اليونسكو في هامبورغ لحضور مؤتمر حول التعليم عُقِد في مدينة بورصة التركية. عندما تقدمت بطلب إذن للسفر لحضور المؤتمر، رفض الشنقيطي سفري متذرعاً بأن الدعوة كان يجب أن تُوجّه للوزارة، والوزارة هي التي تختار الشخص المناسب لحضور المؤتمر. لحسن حظي أن الشنقيطي في تلك الفترة ذهب إلى المغرب للإشتراك في مؤتمر. وأصبح الأمر بيد وكيل الوزارة سعيد الدرة الذي قال لي «الله معك». وعندما كان مصطفى الدباغ وكيلا للوزارة، حاول جاهدا توسيع التعليم في مدن وقرى المملكة، خصوصا في مدن جنوب الأردن مثل معان والكرك، وساعد على توعية الناس في تلك المناطق. وفي مرة من المرات، تظاهر العديد من أهالي تلك المدن، لا أذكر السبب في ذلك على وجه الدقة، فاتّهمَ مصطفى الدباغ بتدبير الأمر، واتهمه الشنقيطي بأنه شيوعي، وخوفا من أن يُسْجَن هُرّب من البلاد سراً.

عام ١٩٥٦ فكر الدكتور وليد قمحاوي بتأسيس منتدى ثقافيا مختلطاً في نابلس. وبالإضافة الى الرجال والشباب الجامعيين كان هذا المنتدى يقبل السيدات اللواتي أنهين دار المعلمات، لأن اللواتي أنهين المرحلة الجامعية كن قلة قليلة. كان الدكتور وليد القمحاوي انسانا نشيطا مثقفا ثقافة علمية كبيرة، ولكن منتداه لاقى رفضا شديدا من أهالي البلد، لكونه يدعو الى الاختلاط واستمر المنتدى برغم المعارضة لحين تم حلّ وزارة سليمان النابلسي.

كنت حينئذ مديرة لمركز تدريب المعلمات الذي أسسته وكالة الغوث الدولية بالتعاون مع اليونسكو. وكنت مُعارة من وزارة التربية والتعليم كما ذُكر في موقع آخر. وقد استعانت الوكالة بمعلمات من مصر وسوريا ولبنان، وذلك لعدم توفر الكوادر الجامعية محليا. وقد انضمت هؤلاء المدرسات إلى عضوية المنتدى. أذكر من الأعضاء أيضا سحاب شاهين.

تم استئجار مقر المنتدى بعمارة في المركز التجاري وسط مدينة نابلس. وتم تأثيثه من تبرعات قدمها المؤسسون والأعضاء.

Digitized by Birzeit University Library

لم يلق إنشاء مثل هذا المنتدى ترحيبا من أهالي نابلس بشكل عام. وحاولوا مقاومته بالنقد اللاذع والتهكم على التمييز بين جامعي وغير جامعي. بالإضافة إلى موقف المحافظين الرافض لمبدأ الإختلاط.

تَمَيّز المنتدى بنشاطاته الثقافية، فقد كانت الندوات والمحاضرات والمعارض الفنية تعقد كل أسبوعين تقريبا. وفي هذا السياق أذكر المحاضرة الأخيرة التي "جابت أجل المنتدى". فقد دعا المنتدى السيد سليمان النابلسي لإلقاء محاضرة في النادي، وكان حينها رئيس الحكومة الأردنية. غصت قاعة إحدى المدارس التي اختيرت لسعتها بالمستمعين من أهالي نابلس بجميع فئاتهم. كان موضوع المحاضرة سياسيا نقديا، ألهب حماس الناس ومشاعرهم.

في اليوم التالي صدر أمر باغلاق المنتدى نهائيا، وتم توزيع محتوياته على الجمعيات الخيرية. كما تمت إقالة وزارة سليمان النابلسي التي اعتبرت غير منسجمة مع السياسة العامة للأردن.

في تلك الأثناء وُجد في مدينة نابلس عدد من النوادي، ولكنها لم تكن مختلطة، ولم أكن أشترك بها لانشغالي الكبير بعملي، ولسفري الدائم الى عمان، ولنشاطي الدؤوب في لجان مختلفة مثل لجان المناهج. وكنّا كلجنة نُكَلَّفُ بمراجعة الكتب ومدى صلاحيتها كي يتم إقرارها. اشتركت مع آخرين في تنظيم دورات للغة الانجليزية في مدن المملكة بالتعاون مع المجلس الثقافي البريطاني. وأذكر في هذا السياق أنه في بعض مدن المملكة لم يكن مألوفاً أن يجتمع المعلمون والمعلمات في قاعة واحدة. فكان هذا يضاعف جهد المحاضرين، فبعد الإنتهاء من محاضرة في قاعة المعلمين، ينتقل المحاضر إلى قاعة المعلمات لكي يعيد المحاضرة وهكذا...، مثلما حدث في مدن الكرك ومعان على ما أذكر. أطرف ما أذكره ما حدث في مدينة الكرك التي لم أجد فيها مكانا للنوم، فاضطررت للمبيت في مستشفى المدينة. وأصبح هذا الوضع أمرا

Digitized by Birzeit University Library

متعارفا عليه. فكل موجّهة تذهب للواء الجنوبي كانت تبيت في المستشفى.

اتّبعت وزارة التربية والتعليم الأردنية نظام الحصة (الكوتا) لكل لواء. أذكر أن السفارة الأميركية وفّرت عشر منح دراسية للجامعة الأميركية في بيروت. وأصرّت السفارة على أن يكون اختيار المبعوثين حسب الكفاءة، ولكن قانون وزارة التربية حال دون ذلك لأنه يتبع نظام الحصص لكل لواء. وكانت النتيجة أن أُلغِيَت البعثات، وضاعت الفرصة على نخبة من المعلمين المتفوقين.

أعتقد أن هذا الأمر كان فيه بعض المنطق والمعقولية. ففي رأي المسؤولين أنه مَنْ غير "المعاني" أو "الكركي" يرغب في العمل في تلك الأماكن النائية؟

أذكر أن الوزارة أرادت معاقبة مدرس لغة إنجليزية من القدس، فنقلته الى مدينة الطفيلة. وأثناء عقد الدورات في تلك المنطقة الجنوبية، مررنا على الطفيلة لنطمئن على أحوال المدرسين هناك. التقينا الأستاذ "المُعاقب" وقال لنا «نسيت الحكي هون». ولا أذكر متى تم نقله من الطفيلة فيما بعد.

في عام ١٩٦٥ أرادت وزارة التربية الأردنية إبعاد أولغا وهبة عن دار المعلمات، وتم نقلها للوزارة في عمان، لأمور لا أعرفها. واتصلوا بي تلفونيا قائلين: احضري حالا الى الوزارة. سافرت الى عمان وأنا لا أعلم لماذا استُدْعيت. أثناء صعودي درج الوزارة، قابلت عدداً من الزملاء الذين حاولوا اقناعي بقبول ما سيعرضه علي الوزير. فسألتهم : ما هو العرض؟ أخبروني أن الوزير سيعرض علي منصب مديرة دار المعلمات في رام الله.

كنت مصممة على رفض العرض، لأنني تضايقت كثيرا من تجربتي السابقة كمديرة لمعهد المعلمات التابع لوكالة الغوث. كنت مخلصة في عملي، ويبدو أنه نتيجة لهذا أصبت بمرض احتقان في الحلق، وأشرف على علاجي د.

Digitized by Birzeit University Library

سامي خوري (كان يعمل حينها في مستشفى المطلع بالقدس)، وشخّص مرضي على أنه ناتج عن الإرهاق وتوتر الأعصاب.

سمعت من الوزير الانتقادات الكثيرة على أولغا وهبة، داخل القاعة الكبيرة التي قابلته بها، وسمعت العرض الذي قدمه لي، واعتذرت. وفاجأه اعتذاري، فحاول اقناعي قائلا: نريد أن تبقى دار المعلمات بأعلى المستويات الأكاديمية، وتلك المديرة كذا وكذا. اعتذرت للمرة الثانية، فبدأ يصرخ، وأصبح اسلوبه شديد اللهجة. خرجت من المكتب دون أن أراه واقفا لوداعي، تاركة اياه في حالة غضب شديد.

عدت لمكتب التربية في نابلس، وكنت مصممة على عدم خوض تجربة إدارة معهد المعلمات للمرة ثانية، لأن تجربتي الأولى كانت صعبة جدا. عدت لعملي كموجهة للغة الانجليزية، وكنت أسافر مرتين أو أكثر في الأسبوع الى عمان. لم يراجعني أحد في ذلك الأمر مرة اخرى.

بعد أن رَفَضْتُ المنصب الذي عرضه الوزير عليّ، عُيّنَت لطيفة أبو ليلى مديرة لدار المعلّمات (كانت موجّهة رياضية في الوزارة). استمرت لطيفة في منصبها لمدة عام، ثم نُقِلَت إلى مركزها السابق في الوزارة، وعُيّنت وجدان الشامي مديرة لدار المعلمات. وحقيقة كنت أتوقع أن أتلقى عقابا على رفضي قبول عرض التعيين بهذه الوظيفة لأن الوزارة من حقها أن تفرض نوع العمل على موظفيها. ولكن لحسن حظي اعتبروا أن رفضي كان من حقي، وبقيت في عملي حتى عام ١٩٦٧.

في أوائل الستينات، عرض د. قدري طوقان مدير كلية النجاح أن أقوم بتعليم حصص انجليزي في الكلية. رفضت في بداية الأمر، ولكن مع الحاحه الشديد وافقت على اعطاء أربع حصص، وكنت في مرات عديدة أصل من عمان الى كلية النجاح لإعطاء الحصة.

Digitized by Birzeit University Library

لم تكن مهنة التدريس مجرد وظيفة أمتهنها، فقد كان التعليم بالنسبة لي، منهج حياة أشارك به طالباتي، وأحاول أن أتقاسم معهن الأفكار والمثل والمباديء والعمل، لنكون معا على الطريق لتحقيق الأهداف. علمتهن الصدق في التعبير عن المشاعر، لذلك لم يكن التعليم محصوراً داخل حدود المنهاج الرسمي، فقد حرصت على أن أعلّم طالباتي منهجي في الحياة والتفكير.

كان مكتب التربية والتعليم يُنَظّم قائمة زيارات للمدارس ويوزعها على الموجهين لزيارة مختلف المدارس، وفقاً للمناطق، وحسب كبر المدرسة أو صغرها. لم أكن أهتم أن أقوم بالتوجيه للمستويات العليا، بل كان المهم عندي أن أطمئن على سير التدريس في الصف الأول الابتدائي، وعلى كيفية التعليم في هذا المستوى، خاصة داخل الصفوف المختلطة.

ولتوضيح مفهوم الصفوف المختلطة، أود أن أذكر أنه لقلة عدد الطلاب والطالبات في ذلك الوقت، كانت المدارس تجمع طلاب الصف الأول الابتدائي والثاني مع بعضهم البعض، أو الثاني والثالث، أو الخامس والسادس. وفي اعتقادي أن مهمة المُدرّس او المُدرّسة كانت صعبة، إذ كان من الواجب إنهاء المنهج خلال فترة محددة، ومخصصة لمستويين أو ثلاثة. وأذكر أنه كان من أنظمة الوزارة أن يُعيّن مدرس أو مدرسة لكل ثلاثين طالب أو طالبة.

كنت أزور المدارس في القرى النائية، وكنت ألاحظ العديد من الفتيات الكبيرات في السن يتجمعن حولي، وأتساءل: لماذا لا تجمعهن مدرسة؟ فأستدعي مخاتير تلك القرى وأستحثهم على ضرورة فتح مدرسة للبنات، وحدث هذا فعلا في العديد من القرى. في بعض القرى، كان الشباب المثقّف يسمحون للفتيات اللواتي أنهين المرحلة الابتدائية الانضمام الى مدارس الذكور لمتابعة دراستهن بعد المرحلة الابتدائية.

Digitized by Birzeit University Library

خلال زياراتي للتوجيه في المدارس الابتدائية، كنت أسجّل ملاحظاتي النقدية لمديرية التربية والتعليم، والتي تركّزت على ضرورة عقد دورات إرشاد وتوجيه للمدرسين والمدرسات في كيفية إستعمال المناهج المقررة. ففي إحدى المرات سألت احدى مدرسات الصف الخامس الابتدائي، : كيف يسير منهج اللغة الانجليزية ؟ أجابتني بأنها وصلت بالكتاب الأول الى الدرس العاشر، والكتاب الثاني الى الدرس الثاني. كان الكتاب الأول منهج لتعليم الطالب، والكتاب الثاني منهج لإرشاد المعلم. هذه الطرفة رويتها لخبير انجليزي قام بزيارتنا، فأجابني معلقا: أنها طرفة هذا العام.

وفي مرة أخرى، عاتبني مدير المدرسة الصلاحية، لوضعي تقدير "جيد جداً" وليس ممتاز لأستاذ في مدرسته، وكان معروفا بكفاءته واخلاصه في عمله. أوضحت لمدير المدرسة أنني أحب أن أكون دقيقة جدا في تقديري. وكنت أسمع جملة اطراء لا تزال ترن في اذني من أساتذة كثيرين، "جيّد ست يسره أفضل بكثير من جيّد جدا بقية الموجهين".

كانت الوزارة قد كلّفتنا أنا والأستاذ محمد العناني (حصل على شهادة الدكتوراه فيما بعد، وهو الآن يدرس اللغة الإنجليزية في الجامعة الأردنية) للمشاركة مع مؤلف كتب " Living English for Jordan"، ستانارد ألن "Stannard Allen". كي تتناسب المادة والمنهاج مع الطلاب الأردنيين وبيئتهم. وتقاسمنا العمل بيننا في الخمسة كتب الأولى للمرحلتين الإبتدائية والإعدادية.

في الأول من حزيران عام ١٩٦٧، سافرت إلى لندن لألتقي السيد ألن والأستاذ العناني كي نضع اللمسات الأخيرة على الكتب.

احتُلّت البلاد في حرب الخامس من حزيران أثناء وجودنا في لندن، وأصابتني صدمة كبيرة عندما علمت أنه خلال ستة أيام أصبحت بلا وطن.

Digitized by Birzeit University Library

وكنت أردد عبارة باللغة الانجليزية لزملائي الانجليز "بين ليلة وضحاها أصبحت بلا وطن". ومن هول الصدمة، كنت أسير في شوارع لندن بدون احساس ولا تفكير، على غير هدى. كنت أشعر أنه من الممكن أن تصدمني سيارة مارة. عندما رأيت شبابا يبيعون صورا لموشيه ديان في الأنفاق الموجودة تحت الأرض، وعندما كنت أرى أصحاب المحلات والسيارات واضعين على زجاج سياراتهم عبارات مثل "نحن نتضامن مع اسرائيل"، وعندما أعدّت المتاجر تنزيلات على بضائعها وأودعت الريع في صندوق اسرائيل، كانت تصدمني رؤية تلك المشاهد، حتى أنني لم أعد أشاهد التلفزيون، أو أسمع الراديو، أو أشترك في أية برامج ينظمها المجلس الثقافي البريطاني، وامتنعت نهائيا عن قراءة الصحف. لم أستطع تحمّل الأمر. ومن أصعب الأمور أن يكون الانسان في بلد غريب لا يشعر أحد بمصيبته. حتى أن أحد الأساتذة الانجليز دعانا الى الغداء، فقلت له: كيف أستطيع قبول الدعوة وأنا أصبحت بلا وطن.

في تلك الأثناء التقيت وزملاء من الدول العربية، وكانت جلساتنا يسودها المرارة والحزن والمعاناة الشديدة. وبعد أن أنهيت عملي مع مؤسسة (لونج مان) عدت في أول طائرة الى عمان.

أعلن الصليب الأحمر عن استعداده لتسجيل أسماء الأشخاص الذين تواجدوا خارج الوطن أثناء الحرب، ويودون العودة الى ديارهم، فاتصلت بهم على الفور. ولم أستطع انتظار الرد،إذ علمت أن أهالي الضفة الغربية المتواجدين خارج الوطن يسافرون الى الضفة الغربية عبر منطقة على نهر الأردن تسمى "البياضة" وعند وصولهم الى النهر، كانت مهمة أشخاص تمريرهم عبر النهر. تسلّلت ومجموعة من المسافرين تلك الطريق، ووصلنا الى النهر، واذا بالشخص الموكل أن يمررنا يرفض القيام بمهمته، وعاد جميع من معي، سواي، فقد صممّت على المضي الى النهر والوصول الى جسر دامية الذي كان مكسوراً. أوصلني مشكوراً إلى الجسر مدير مستنبت دير علاّ سامي بشناق.

Digitized by Birzeit University Library

وصلت الى المكان الذي يقف به العساكر اليهود، مصوبين فوهات بنادقهم نحوي. لم أهتم، وقلت لهم اقتلوني إن شئتم، فلن أعود إلاّ إلى بلدي نابلس. وقد استغرقت هذه المفاوضات أكثر من ساعة، يذهب جندي ويأتي آخر، إلى أن حضر ضابط يتكلم الإنجليزية. عندما علم أني كنت في لندن، طلب رؤية جواز سفري وتأكد من صحة ما قلت، عندها قال "Alright"، بامكانك التوجّه إلى نابلس.

ركبت أول سيارة قادمة من غربي النهر، كانت السيارات تأتي محملة بفلسطينين راحلين الى شرقي النهر، وتعود فارغة. طلبت من الضابط تصريحاً لدخول نابلس لإنها كانت تخضع لنظام حظر التجول كما أخبرني سائق السيارة. فأجاب الضابط أنه لا لزوم لذلك لأنني سأصل قبل السادسة مساءً، موعد فرض حظر التجول.

منظر الأعلام البيضاء ترفرف فوق أسطحة المنازل، وجو المدينة المشبع بالسكون والموت أفقدني صوابي. نابلس! كيف حدث هذا ؟ هذا ما ظللت أردده.

بكت يسره بكاءً حاراً عند تذكرها هذه التفاصيل وتابعت:-

أذكر تاريخ ذلك اليوم جيدا، لأنني طوال سفري من النهر حتى نابلس كنت ألعن تاريخ ذلك اليوم الذي صادف تاريخَ استقلال أميركا، الرابع من تموز عام ١٩٦٧. كدت أسقط مرة أخرى عندما رأيت العلم الاسرائيلي مرفوعا فوق مبنى البلدية.

بعد فترة من الزمن أعدّت السلطات المحتلة برنامجا لاحصاء السكان الفلسطينين، فأعطي كل فرد ورقة احصاء. واحتفظت بورقتي حتى عام ١٩٨٨، عندما اضررت للذهاب إلى عمان لرؤية أخي خالد بعد أن أُجْرِيَتْ له عملية جراحية. لم يكن الحصول على الهوية سهلاً فقد خضعت لكثير من الأسئلة تدور حول سبب تأخري في طلب الحصول على هوية، وحول إذا ما كنت

Digitized by Birzeit University Library

طوال هذه المدة فعلاً في الضفة. طُلِبَ مني إثباتات على أنني لم أغادر الضفة من التربية والتعليم، ومن المحكمة. بعد جهد كبير حصلت على الهوية. لم أشأ يوما ما أن أمتلك الهوية الإسرائيلية، ولا جواز السفر الأردني. أردت بهذا أن أعبّر عن احتفاظي بهوية فلسطينية مفقودة.

حدثت لقاءات ما بين قيادة السلطة المحتلة ومسؤولي التربية والتعليم، حول امكانية إعادة فتح المدارس. تشدّد المسؤولون العرب في عدم قبول فتح المدارس اذا استثنيت مدارس القدس.

بدأت السلطات الإسرائيلية باتخاذ اجراءات للضغط على السكان حتى يعودوا عن قرارهم إغلاق المدارس احتجاجا على الأحتلال، فمنعتهم من قطف الزيتون وحالت دون تصدير منتوجاتهم الزراعية. أذكر أن أحد المواطنين سأل قدري طوقان بعد إعادة فتح المدارس عن السبب الذي دعاهم للموافقة علما بأن شيئا من شروطهم لم يتحقق. كان رد قدري طوقان: أهل البيت أدرى بما فيه.

لم أحتج على عدم فتح المدارس، ولكنني احتججت لعدم تنفيذ الشروط التي وضعها المعلمون مقابل فتح المدارس، وأهمها اعتبار القدس جزءا مهما من الضفة الغربية وعدم ضمها الى إسرائيل، وإدراج مدارس القدس ضمن مدارس الضفة.

جاءني استدعاء من الحاكم العسكري لمدينة نابلس في أواخر عام ١٩٦٧، ولاثنين من زملائي وهم أحمد عثمان موجّه الرياضيات، وسلوى عاشور موجهة العلوم المنزلية. وقابلنا الحاكم، كلّ منا على حدة.

ذهبت الى مكتبه، دخلت وأنا مكتّفة اليدين، لئلا اضطر للسلام عليه (وهذه معروفة عني) لا أستطيع التسليم على إسرائيلي محتل. قال لي : "هيك بنابلس بقولوش صباح الخير". ثم اتهمني بالتحريض على عدم فتح المدارس. فأجبته

Digitized by Birzeit University Library

انني بهذا أعبّر عن رأيي. فأجابني أن رأيك هذا هو تحريض بحد ذاته. سألته إذا كان بمقدورهم إجباري على العودة للعمل، أجاب بالنفي، وطلب مني التوقيع على ورقة مكتوبة باللغة العبرية، أفهمني أنها تلخيص لحديثنا. رفضت ذلك، وقلت له: أنا لا أوقع على ورقة مكتوبة بلغة لا أفهمها، وانني نسيت الحديث الذي دار بيني وبينه، فأعدّوا ورقة مكتوبة باللغة العربية. فوقّعت عليها.

وعن عصيانها المدني تحدثت يسره:

استنكفت عن العمل مع سبعة عشر آخرين من زملائي في سلك التربية والتعليم، ومن بينهم شقيقتي مسرّه التي كانت تعمل مديرة مدرسة. صمّمنا أختي وأنا على عدم العودة للعمل، رغم أنه لم يكن لدينا أي مورد آخر نعيش منه. وقلنا، اذا لزم الأمر، نعلّم دروسا خصوصية لنعيش. في تلك الأثناء وصل كتاب من وزير التربية الأردني يطلب فيه عدم فتح المدارس. وكان هذا سببا آخر لتمسكنا بقرارنا الاستنكاف عن العمل.

زارني العديد من الزملاء لإقناعي بالتراجع عن قراري، ولأعود موجهة في مكتب التربية. وكان يترامى الى مسامعي بعض الجمل يرددها زملائي مثل "برْموكِ على الجسر"، فأجيبهم "حبل المشنقة أقرب اليّ من تغيير مبادئي".

وبعبارة واضحة صريحة لا أستطيع التعامل مع المحتلين، أشعر بالذل والمهانة. وكنت أسمع فيما بعد عن الأمور المذلة في مكتب التربية، وما حصل للأستاذ أحمد عثمان كان خير مثال على هذا. فقد أبْعِدَ عن البلاد لعدم ارتياح السلطات لنزعته الوطنية. كما أبْعِدَت سحاب شاهين فيما بعد. واعتقدت أن عدم عودتي للعمل أسلم، لأنني لا أضمن عدم تدخلي أو اعتراضي على ما يجرى. أتذكر تعليق زميل لي "يسره كالسمك في الماء، إذا خرجت منه تموت".

تداعت مجموعة من سيدات نابلس للحث على مقاطعة البضائع الاسرائيلية.

Digitized by Birzeit University Library

وللأسف لم تستمر هذه الحملة، فقد كان التجار يواجهون ظروفاً صعبة. وهكذا امتلأ البلد بالمنتوجات الإسرائيلية. ومما يُؤسف له أن وعي الناس لأهمية المقاطعة كان محدوداً، حتى أنهم كانوا يفضلون البضائع الإسرائيلية، حتى لو توفّر مثلها من المنتوجات المحلية، مثل الصابون والسمن. أما بالنسبة لي، فلا أزال أقاطع أي منتوج إسرائيلي مهما كان نوعه، ومهما كانت حاجتي إليه. وكنت اذا أردت شراء أية سلعة أتفحصها جيدا، واذا تبيّن لي انها صناعة اسرائيلية، تركتها وانصرفت. حتى أن أحد التجار في مرة من المرات قال لي باللهجة النابلسية: "ليش أبدكيش تشتري، مهو دمنا صار اسرائيلي"، أجبته: "دمكم أنتم أما دمي فلن يصبح اسرائيليا أبدا".

كنت أؤمن بمقاطعة البضائع الاسرائيلية منذ عام ١٩٤٧، عندما اشتعلت المشاكل بين العرب واليهود. وكنت حينئذ ذاهبة للتسوق من شوارع القدس، وتوقفت عند أحد المتاجر لابتياع جوارب، واذا بها من ماركة "لودزيا" الاسرائيلية، فتركتها ومشيت.

أذكر أن الحركة النسائية نشطت وأبدعت في أعمال كثيرة ، من ضمنها العمل الخيري. وأذكر قائدة هذا المجال عصام عبد الهادي التي كانت تشغل منصب رئيسة الاتحاد النسائي، وتقود مجموعة كبيرة من النساء للقيام بأنشطة مختلفة لمساعدة المجتمع النابلسي بعد حرب ١٩٦٧. اعتقلت مع ابنتها، وطُردتا من الوطن عام ١٩٦٨، كما طُرِدَ غيرها الكثير من مديرات المدارس والمدرّسات.

فتحت المدارس أبوابها، وعُيّن ابراهيم صنوبر مسؤولا عن قسم الامتحانات. وفي أول مرة عُقِدَ فيه الإمتحان، عرض علي الأستاذ صنوبر الإشتراك في وضع أسئلة اللغة الإنجليزية للتوجيهي، وقد اعتذرت لأنه كان في اعتقادي أن هذه المشاركة تخالف المبدأ الذي اتخذته لنفسي حول عدم التعامل مع المحتلين. وتوقفت عن القيام بأي نشاط وظيفي، إيماني بالمقاومة السلبية،

Digitized by Birzeit University Library

فقد كان هذا الأسلوب ضمن طاقتي وامكانياتي.

تولى الحاج معزوز المصري رئاسة البلدية بعد حمدي كنعان، وكان الحاكم العسكري لمدينة نابلس ضابط يدعى "جفعولي". قيل لي في ذلك الوقت أن هذا الحاكم لم يكن قاسياً وفظاً كغيره من الحكام. وكان يحاول الإتصال "الودّي" مع البلدية ومع السكان. وكان دوما يستدعي أفراداً للتحدث إليهم والإطلاع على أرائهم.

كنت من جملة الناس الذين طُلِبوا لمقابلة "جفعولي" عن طريق البلدية. أرسل معي الحاج معزوز مرافقاً من البلدية يُوصِلني إلى الحاكم العسكري. عندما دخلت كتّفت ذراعي كالعادة لتفادي مصافحته. ولم أشرب كوب الشاي الذي طلبه لي. كان الحوار باللغة الانجليزية، رفضت عرضه إحضار مترجم لئلا يخطيء في نقل ما أردت قوله. سألني فيما اذا زرت تل ابيب، أجبته لا أستطيع تحمل رؤية الأراضي التي اغْتُصِبَتْ منا. أجابني: نحن فقدنا أراض في العراق. ثم سألني: ما هو الحل في رأيك ؟. أجبته: الإنسحاب طبعاً. وأضفت: أقترح عليك قراءة كتاب "The Evasive Peace" للكاتب جون ديفز. سألني ماذا يحوي الكتاب. أجبته: إني على ما أعتقد، لم آت إلى هنا لإعطاء تقرير عن كتاب بامكانك شراءه وقراءته، وأنا أقترح الحل الذي جاء فيه.

استُدعيت عدة مرات فيما بعد لمقابلة الحكام العسكريين. وفي المرة الأخيرة في أوائل عام ١٩٦٩. دخلت متحفزة، فقد أدخلوني متأخرة خمس دقائق. صرخت في وجه الحاكم العسكري باللغة الإنجليزية "خمس دقائق تأخير". فتح ملفي وبدأ بالقاء التهم. كان أولها: "أنت لا تصافحين المسؤولين العسكريين". الثانية: "أنت عضو في التنظيمات الفلسطينية". أجبته باللغة الانجليزية بلهجة تهكمية:"أنا أرى أن جهاز مخابراتكم ذكي جدا".

أذكر أنه سألني لماذا ألبس ملابسا سوداء، فأخبرته أنها ملابس الحداد على

Digitized by Birzeit University Library

والدي الذي توفي قبل أربعين يوما. وفي هذا السياق أذكر يوم وفاة والدي بكثير من الحزن والأسى. فقد توفي في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٨، وهو اليوم التالي لذكرى وعد بلفور. وكان حظر التجول مفروضا على المدينة من قبل السلطات العسكرية الإسرائيلية بسبب اشتداد الأحداث في ذلك اليوم. ووجدنا صعوبة كبيرة في استدعاء طبيب، إذ اعتذر من استعنّا بهم بأنهم لا يستطيعون الوصول بسبب منع التجول. ولكني أذكر بتقدير وإكبار الدكتور صلاح البسطامي الذي حضر بسيارة إسعاف لمعالجة الوالد. ولكن الأجل كان قد انتهى فتُوفّي الوالد في اليوم التالي. أذكر مآذن المدينة نعته بشكل مميز بصفته عالم من علماء نابلس. وأذكر أن أهالي المدينة جاءوا للتعزية بعد أن علموا أن المتوفي هو الشيخ عادل صلاح من صيغة النعي المذاع عبر المآذن، دون أن يُذكر اسمه. حصلنا على إذن من الحكم العسكري لتشييع جنازته في ذلك اليوم. وقد سُمِحَ لمئة وخمسين شخصا فقط ورفض ذلك سكان المدينة واحتشدوا للمشاركة في الجنازة، وكان يوما مشهودا.

بعد اشتعال حوادث عام ١٩٧٠، وما حدث للفلسطينين في الأردن، لم يتمكن طلّابنا من الذهاب إلى عمان لتقديم طلباتهم لدخول الجامعات، فرأى د. سليم الناشف أن تُؤسّس جمعية خيرية لمساعدة هؤلاء الطلاب. شُكّلتْ الجمعية وكان أعضاء هيئتها الإدارية الدكتور سليم الناشف، والدكتور هشام عبد الهادي من جنين، وعزت قرمان من رام الله، وصائب الناظر من الخليل، والياس البندك من بيت لحم، وعباس الكرد. اجتمعت هذه الهيئة الإدارية في شقة تم استئجارها في عمارة العنبتاوي الواقعة على الدوار في وسط المدينة.

قدم د. سليم الناشف والهيئة الادارية اقتراحا للحاكم العسكري يطلبون فيه تعييني مشرفة على هذا المكتب. لاقى هذا الاقتراح اعتراضا، ولكن تمت الموافقة في نهاية المطاف.

سُجّلَ المكتب كجمعية خيرية، ووُظّفْتُ فيه بناء على اقتراح د. سليم

Digitized by Birzeit University Library

الناشف. وحسب قانون الجمعيات المعمول به يجب أن يوافق الحاكم العسكري على الأسماء المقدمة للعمل في المكتب. وافقت على تَسَلّم العمل شرط أن لاتربطني أية علاقة مع السلطات العسكرية.

تأسس المكتب بتبرعات من كافة فئات المجتمع، مثله مثل أي جمعية خيرية. وقد انهالت التبرعات بكثرة في السنة الأولى ثم قلّت كثيرا في السنة التي تلتها.

بعد مرور عام على تأسيس مكتب التنسيق، أصبح بمقدور الطلاب السفر إلى عمان، وتقديم الوثائق بأنفسهم الى الجامعات، في حين كان حسان عوض سكرتير مكتب التنسيق عند افتتاح المكتب يقوم بهذه المهمات؛ يأخذ وثائق الطلاب وطلباتهم، ويستبدل ما يلزم استبداله من شهادات ميلاد أردنية وغيرها، ويقدم الطلبات إلى سفارات البلاد التي ينوي الطلاّب الإلتحاق بجامعاتها.

في عام ١٩٧٢ قام ضابط التربية بزيارة لمكتب التنسيق، وكان بصحبته عباس الكرد عضو لجنة الامتحانات. دخلوا المكتب، فقمت بمصافحة عباس الكرد ولم اصافح ضابط التربية. أذكر أنني سحبت يدي بشكل انفعالي كبير، وبدون تفكير. وسألتهم لماذا أنتم هنا وماذا تريدون؟ انسحب ضابط التربية ومرافقوه دون أي كلمة. لدى سماع أعضاء الهيئة الأدارية بما فعلته مع ضابط التربية، عقدوا اجتماعا لمعاتبتي على تصرفي هذا. وقال لي أحدهم: أنت لست وطنية أكثر منا. فأجبته: الوطنية تحتاج الى تعريف. وكنت قد أعددت استقالتي مقدما وقُبلت على الفور.

بدأت الأمور تتسهّل بالنسبة لسفر الطلاب للجامعات، وأخذت تقل فاعلية المكتب تدريجيا. وفكّرت الهيئة الإدارية باغلاق المكتب وبيع محتوياته. واقترحت على سكرتير المكتب استئجاره وشراء محتوياته وتحويله الى مكتب خدمات وطباعة، وتنظيم دورات. وتبرّعت بأن أقوم أنا بعقد دورات لغة

Digitized by Birzeit University Library

إنكليزية لمختلف المستويات.

بدأت بتدريس اللغة الانجليزية لمن يرغب في ذلك، ضمن صفوف ومستويات منتظمة، ولم أتقاض راتبا على عملي هذا. قمت بذلك لتشجيع استمرارية هذا المكتب.

بعد مدة، سافر حسان عوض الى دول الخليج ليعمل هناك، وتسلم والده – هو زميل سابق في التربية والتعليم – ادارة المكتب. بدأ بعد ذلك عدد الطلاب الملتحقين في دورات تعليم اللغة الانجليزية يقلّ، الى أن اقتصر في النهاية على ربات البيوت فقط.

علّمتُ مستَويَيْن لربات البيوت، مستوى متقدم ومستوى مبتدىء. وكنت أهتم بتعليم الأمور التي من الممكن الاستفادة منها في الحياة العامة، ومتابعة الأمور اليومية بشكل جيد، مثل قراءة الصحف التي تصدر باللغة الانجليزية، متابعة الأخبار، وقراءة مواعيد انتهاء صلاحية مفعول الأدوية المكتوب باللغة الإنجليزية. كان تعليمي يتضمن لفت نظر الى أمور حياتية متنوعة وبأساليب مختلفة.

في عام ١٩٧٦ استدعاني الأستاذ صنوبر، وأخبرني بوجود اقتراح بتوسيع مجلس امناء جامعة النجاح، وأن اسمي طرح لأكون عضوا في المجلس، وطلب مني أن أفكر في الموضوع. ولما كان العمل في هذا الميدان هو مجال اهتمامي، وافقت كما وافق سبعة آخرون على انضمامهم إلى مجلس الأمناء، وهم عبد الغني العنبتاوي، د.شوكت زيد الكيلاني، هاني عرفات، موسى الجيوسي، مدحت كنعان، رشيد مرعي، فدوى طوقان. كان مجلس العمدة كما كان يسمى مكوناً من إثني عشر شخصاً. وبمرور السنين بقي منهم أربعة، وهم حكمت المصري، رئيساً، والأستاذ إبراهيم صنوبر،الدكتور أحمد سروري والدكتور جودت تفاحة. انعقدت أول جلسة لهذا المجلس في ١٩٧٦/١/١٨.

Digitized by Birzeit University Library

بدأ المجلس الجديد عمله بمراجعة وتقييم المستوى الأكاديمي لكلية النجاح. وكانت قد أصبحت كلية عام ١٩٦٥ بجهود قدري طوقان مدير الكلية آنذاك. وقد كان قدري مهتماً بتطوير الكلية ورفع شأنها، حتى أن أقاربه قالوا أنه "متزوّج من النجاح". وقبل أن تصبح كلية كانت النجاح مدرسة ثانوية يتقدم فيها الطلاب للتوجيهي المصري والأردني. بعد وفاة قدري عام ١٩٧١ تولى إدارة الكلية محمد العمد، وكان أحياناً يحضر اجتماعات مجلس الأمناء. وقد كُلّفت بموجب عملي السابق كموجّهة بزيارة الصفوف وتقييم المستوى التعليمي لأننا كنا حريصين على الحفاظ على سمعة النجاح الرفيعة. لم يرق دخولي الصفوف إدارة المعهد، وعلى مضض تقبّلوا زياراتي لصفوف اللغة الإنجليزية. لاحظت أن أحد المدرسين، يمكن أن يكون أداؤه أحسن لو سنحت له الفرصة وذهب إلى إنجلترا. فسعيت لدى صديقة إنكليزية كانت تتعاطف مع الفلسطينيين، وتمكنت من توفير الفرصة له لقضاء عطلة الصيف هناك. بعد أن انتهيت من زيارة صفوف اللغة الإنجليزية، طلبت أن أزور صف اجتماعيات. كان الجواب، "ما ليسره ومادة الإجتماعيات، فهي متخصصة باللغة الإنجليزية فقط". وانتهت محاولتي هذه عند هذا الحد.

بدأنا كأعضاء جدد في التفكير بتطوير الكلية إلى وتحويلها إلى جامعة. وعندما طرحت الفكرة في أحد اجتماعات المجلس، أصيب معظم الأعضاء بالدهشة والرهبة، وتساءلوا: كيف يمكن أن يتم ذلك، هل نستطيع الحصول على ترخيص من السلطات؟ ومن أين التمويل؟ ومن أين الكوادر الأكاديمية ..و..و... ولكن بعد دراسة مستفيضة اتخذ القرار بتحويل الكلية الى جامعة. وتشكلت لجنة من مجلس الأمناء للسفر إلى الخارج لجمع التبرعات. ويروي لنا أعضاء هذه اللجنة أنهم "ذاقوا الأمرّين" في تلك الرحلة بسبب ما نالهم من تعب ومشقة وسوء معاملة وإهمال من بعض المسؤولين في الخليج. ولكن ذلك كان محتملاً في سبيل تحقيق الغاية النبيلة.

Digitized by Birzeit University Library

افتتحت جامعة النجاح الوطنية بنابلس في ١٩٧٦/١١/٥ في احتفال بسيط اقتصر على العاملين في الجامعة. وكان قد تم التعاقد مع الدكتور كايد عبد الحق ليكون رئيساً للجامعة.

سارت الجامعة على أحسن ما يرام في السنتين الأولى والثانية. لكن للأسف الشديد بدأت بعض الأيدي تلعب من الخارج وتؤثر على بعض العاملين في الداخل، في محاولة لتسييس الجامعة. نتج عن ذلك اضطرابات في حرم الجامعة. اتّخِذَ قرار بمعاقبة الطلبة ؛ بعضهم بالفصل، والبعض الآخر بالتنبيه والإنذار. وكانت نتيجة الاضطرابات في حرم الجامعة التدخل الخارجي الذي كانت تصله معلومات غير صحيحة عما يجري. وطُلِبَ من المجلس التراجع عن قراراته بدعوى أن ذلك من أجل المصلحة العامة. فشعر بعض الأعضاء بأن الذي جرى يعتبر تدخلاً في غير محله، ورفضوا الرضوخ لهذا التدخل. وقدم خمسة من أعضاء المجلس استقالاتهم، وهم إبراهيم صنوبر ورشيد مرعي ومدحت كنعان وموسى الجيوسي وفدوى طوقان (طالما حاولت الإستقالة قبل الأحداث) وأنا. وقد كانت هناك مساع كثيرة للتوفيق بين الأطراف المعنيين من الداخل والخارج. ولكن ذلك كان عبثاً، فكل طرف متمسك بمفاهيمه. كنت شخصيا أعددت كتاب استقالتي قبل ذلك بعدة شهور عندما لاحظت بعد اجتماعات مع بعض أطراف الخارج أنه لا فائدة من التفاهم. وقد أشارت علي شقيقتي أن أتمهّل في تقديم الإستقالة حتى لا أتسبب في إضافة شرخ على الوضع القائم. وأخيراً عندما قرر الزملاء الإستقالة تقدمت باستقالتي بعد الأستاذ إبراهيم صنوبر. إذ كنا نؤمن بأن مجلس الأمناء هو الأمين على مصلحة الجامعة ولا مجال لتدخل خارجي. فاما نحن أمناء أو غير أمناء. قدمت استقالتي بتاريخ ١٩٨١/١١/٢٥.

في نفس العام الذي أصبحت به عضواً في مجلس الأمناء وهو عام ١٩٧٦ انتخب بسام الشكعة رئيسا لبلدية نابلس. وفي عام ١٩٧٧ أرادت البلدية تأسيس مدرسة للبنات، ولكنها لم تكن تملك المبالغ الكافية لانشاء المدرسة.

Digitized by Birzeit University Library

تبرعت السلطات الاسرائيلية بتقديم المساعدة، ولكنها اشترطت أن يُنَقَش على حجر في مدخل المدرسة أنها بنيت بالتعاون ما بين المجلس البلدي والسلطات. رفض رئيس البلدية هذا الأمر، ولم يبحث به مطلقا.

ومن منطلق اهتمامي بقضايا التعليم وخصوصا للبنات، فكرت في هذا الأمر وقلت أن الأمور يجب أن لاتتوقف عند ذاك الحد. فذهبت مع مجموعة من المهتمين الى السيد بسام الشكعة وقابلناه. أذكر أنني قلت له: "با أبو نضال، أنا بعرف أنه في العالم كله بشترك الناس في رصد مبالغ لبناء المدارس ولبناء المكتبات، وقد رأيت أن خريجي إحدى الجامعات في أمريكا ساهموا في بناء مكتبة كبيرة، فلماذا لا ننادي الى تنظيم حملة لجمع التبرعات، ونقوم ببناء مدرسة كمال جنبلاط (كما اقترح اسما لها في ذلك الوقت). ويكتب أنها بنيت بتبرع من أهالي البلد".

أعددنا لندوة ودعونا عدداً كبيراً من سكان نابلس والمهتمين في مجال التربية والتعليم، وممن اعتقدنا أن بمقدورهم تمويل تلك الحملة. وساهمت مع آخرين كبسام الشكعة ورشيد مرعي وهاني عرفات بتقديم كلمات حول أهمية المشروع.

خصصت كلمتي للتشديد على إبراز أهمية تعليم المرأة، وأذكر أنها لاقت صدىً جيدا لدى الحضور. والى اليوم يذكروني بالمثل الذي رويته لهم عن احدى طالباتي، فقد كانت في المستوى الثانوي ومن المتفوقات جدا وعارض أهلها مواصلة تعليمها، وحرموها من متابعة تعليمها في المدرسة. وعندما قابلت والدتها في أحد الأيام، عاتبتها بشدة لابعادها ابنتها عن الدراسة فقالت لي "لا سمح الله لا سمح الله هي بذْها تنْزل معلمة". والمهم في هذا الموضوع، أن تلك الفتاة عندما وعت أمورها ورأت أشقاءها ينهون دراستهم الجامعية، تابعت تعليمها بشكل مستقل تام في الجامعات المصرية، وهي تشغل الآن منصباً رفيعاً في الأردن. أردت أن أدْخِلَ هذه الأمور في كلمتي للحضور لأستحثهم على

Digitized by Birzeit University Library

التبرع، كان أول المتبرعين حمدي كنعان الذي تبرع بمبلغ كبير جدا، مما شجع الجميع على التبرع، حتى أن شقيقتي مسرة بمحدودية ما تملك تبرعت بمئة دينار.

جمعنا المبالغ وقمنا ببناء المدرسة بالتعاون مع المجلس البلدي، وهي الآن شاهد على ذلك العمل التطوعي الذي قام به أهل البلد جميعا. وأذكر عند احتفالنا بتدشين المدرسة، حضرت دوريات الجيش الاسرائيلي وقامت بتفريق الحضور، والغاء الحفل. وسُمّيَتْ المدرسة بكمال جنبلاط وفاء له، لمواقفه الايجابية تجاه الفلسطينيين. وقد دشنت المدرسة في الوقت الذي اغتيل فيه. اقترحنا في ذلك الوقت أن تكون من بيننا (كمجموعة عمل تطوعي) موظفة في البلدية، لتنسيق الأمور ما بين مجموعة العمل التطوعي والمجلس البلدي، وفيما يتعلق بمشاكل البلد أيضا. فيما بعد قمنا بجمع تبرعات لفقراء البلد، ومتابعة ذلك مع البلدية، ومساءلتهم "هل بني سقف ذلك البيت"؟ هل ردمت تلك الحفرة؟ هل اعطيت تلك العائلة المبلغ المقرر؟ وهكذا... ولكن لم يؤخذ اقتراحنا مأخذ الجد، وبقينا كمجموعة نعمل تطوعا.

تابعت عملي في مكتب التنسيق الذي تحول الى مكتب دورات وتعليم لغة انجليزية، كما ذكرت سابقا، وتابع الاشراف عليه الأستاذ محمود عوض. ظلت السلطات تلاحق محمود عوض "موجه التربية الرياضية" لتجعله يتنازل عن هوية القدس أو يذهب للسكن في منطقة القدس. فقرر البناء في ضاحية البريد واضطر لإرسال أبنائه عند أقاربهم في القدس. وأذكر أن ابنته عندما تخرجت وتعينت، خيّروها اما أن تستقيل أو تسكن القدس.

أحِيل محمود عوض على التقاعد من مكتب التربية، فباع مكتب التنسيق لمكتب العلوم والثقافة الذي يملكه فوزان الجابي، وأصبحت أدرس ربات البيوت في مكتب العلوم والثقافة. واصلت تعليم ربات البيوت حتى اندلاع الإنتفاضة، حيث توقّف نشاطي هذا نهائياً.

Digitized by Birzeit University Library

خلال تلك الفترة وأثناء عملي كمدرسة لربات البيوت، مارست هوايتي في الترجمة. أحب الترجمة ولكني لا أشعر بملكة الكتابة، تدور في رأسي أفكار كثيرة ولكن قلمي ثقيل في يدي، أعتبر نفسي مقلة جدا في الكتابة.

شجعني على ترجمة القصص الأجنبية في أوائل الستينات الأستاذ محمد سليم الرشدان، زميلي في المهنة. كان يعمل في مجلة "رسالة المعلم"، وكان يأخذ مني ترجمات القصص وينشرها في المجلة. وشجعتني مجموعة من صديقاتي لأضع هذه القصص المترجمة في كتاب، فاتصلت بفيصل الحسيني رئيس جمعية الدراسات العربية ووافق على نشر وطبع القصص. كنت أقرأ عشرات القصص كي أختار منها قصة مناسبة لمجتمعنا وعاداتنا وتقاليدنا. ونشرت هذه القصص في كتاب عام ١٩٨٤. ترجمت عدة قصائد شعر لفدوى طوقان من العربية الى الانجليزية اسميته كوابيس النهار (Daily nightmaires). أعارتني الدكتورة مهية خلفة (وهي طبيبة أطفال في نابلس)، كتاباً يتحدث عن مذكرات موشيه شاريت للمؤلفة ليفيا روكاخ، وهي تكتب وتنشر لصالح القضية الفلسطينية. ترجمت الكتاب للغة العربية، ونشرته إحدى دور النشر في مدينة رام الله عام ١٩٨٤، وقدمت ريع بيع الكتاب لصندوق طلبة النجاح.

بدأت الانتفاضة الفلسطينية في كانون أول من عام ١٩٨٧، ومعها توقف عملي كمعلمة لربات البيوت. فقد كان المكتب يقع على مقربة من الأحداث، كنا نشاهد أعمال العنف من قبل الجيش، من ضرب تلاميذ المدارس وتخويف الطالبات، ورمي القنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين. أذكر آخر يوم من أيام التدريس، ذهبت الى المكتب ومعي أوراق امتحان اللغة الانجليزية، ولم أستطيع أجراء الامتحان بسبب اشتداد الحوادث وخرجت من المكتب ولم أعد اليه.

Digitized by Birzeit University Library

بعد وفاة الوالد رأينا أن مكتبته القيّمة يجب أن يستفيد منها عدد أكبر من الناس، لا أن تبقى محصورة لدينا في البيت. فتبرّعنا بها إلى مكتبة بلدية نابلس وعددها حوالي ٢٨٤ كتاباً. وتناولت هذه الكتب مواضيع مختلفة في اللغة والفقه والتاريخ والأدب. بعد وفاة والدتي عام ١٩٧٨، اشترينا كتباًبمبلغ ٣٠٠ ديناراً، وأهديناها إلى مكتبة جامعة النجاح الوطنية وذلك عن روحها. ويؤسفني أنه في إحدى زياراتي لمكتبة البلدية لم أرَ كتب والدي على الرفوف، فسألت عن السبب، وعلمت أنها بحاجة إلى تجليد، وأنه ليس لدى المكتبة الموازنة الكافية لذلك. فتبرّعت بتكلفة تجليدها على نفقتي الخاصة.

كنت دوماً أتوق إلى تعلّم اللغة الفرنسية. عندما فتح مركز لتعليم اللغة الفرنسية في نابلس، التحقت به ولا أزال أدرس اللغة الفرنسية حتى الآن لأني أومن أن التعلم يكون من المهد الى اللحد.

في نهاية تذكراتها تحدثت يسره عن حياة شقيقها خالد:

أنهى خالد دراسته في التاريخ من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٧، في الفترة التي اشتدت فيها حدة الإرهاب الصهيوني في البلاد. وفي ذلك الحين عرض مكتب التربية والتعليم في نابلس أن يعمل مدرسا في المدرسة الصلاحية الثانوية ولكنه اعتذر لأنه كان يطمح في نوع آخر من العمل. وقد وجد عملا في مطبعة الحكومة في القدس وأعجبه ذلك لأنه تمكن من الإنتساب إلى كلية الحقوق. وأقام في القدس، وكان يأتي إلى نابلس في نهاية الأسبوع.

عندما اشتد الإرهاب الصهيوني، ضغطت عليه والدتي للعودة الى نابلس، فاستقال من وظيفته وعاد. في نفس السنة في ١٩٤٧/١١/٢٢ صدر قرار التقسيم واندلعت نتيجة ذلك الحرب غير المتكافئة بين العرب واليهود. وكانت النتيجة هجرة الناس من بلدانهم ومن جملتهم أخوالي الذين تركوا طولكرم

Digitized by Birzeit University Library

وذهبوا إلى سوريا لفترة من الوقت. أما خالي عبدالله وهو باعتبار أخ لخالد فقد أقام عندنا إلى أن وجد عملاً في وكالة الغوث. وعمله هذا استدعى وجوده في القدس. كما عُيّن خالد أستاذاً في المدرسة الصلاحية عنما فتحت المدارس. ثم عمل بالإعارة من وزارة التربية والتعليم إلى الوكالة كمراقب تعليم وبقي في نابلس حتى عام ١٩٥٩، حيث وجد عملاً في شركة نفط الكويت في الأحمدي، واستقال من عمله في نابلس وعمل هناك حوالي عشر سنوات.

عاد في السبعينات الى عمان مع زوجته (من عائلة الخيري) وعمل رئيسا لقسم النصوص في التلفزيون الأردني، ثم انتقل للعمل في السعودية كمترجم في شركة "ردك" في جدة. وفي أوائل الثمانينات عاد الى عمان ليعمل رئيسا لقسم الترجمة في التلفزيون الأردني. مرض مرضا شديدا وتوفي في الخامس من أيار عام ١٩٨٨ عن عمر يناهز الرابعة والستين.

أود الذكر هنا أن يسره صلاح حدثتني في المقابلة الأخيرة أنها بعد عام ١٩٦٧ بدأت بالإنسحاب التدريجي من المشاركة الفعالة المجتمعية، ووصفت ذلك بأنه شيء من خيبة الأمل. ولاحظت خلال مقابلاتي لها بأن تذكراتها لما بعد عام ١٩٦٧ أصبحت باهتة وخافتة وغير مضيئة لأنها رفضت باصرار ومن أعماق مشاعرها واقع الإحتلال. وشعرت أثناء حديثي معها بالأصالة التي تجمع ما بين الإنتماء الحقيقي للوطن، وحب العلم والتمسك بالقيم الأصيلة النابعة من الإنسان الفلسطيني.

ومن الجدير بالذكر أنها المرأة الأولى في نابلس التي اجتازت العقبات، وقفزت من فوق السياج، وسافرت لإتمام تعليمها في الخارج، في حين لم تتمكن أية واحدة أخرى على ذلك في تلك الفترة.

Digitized by Birzeit University Library

الوثائق

Digitized by Birzeit University Library

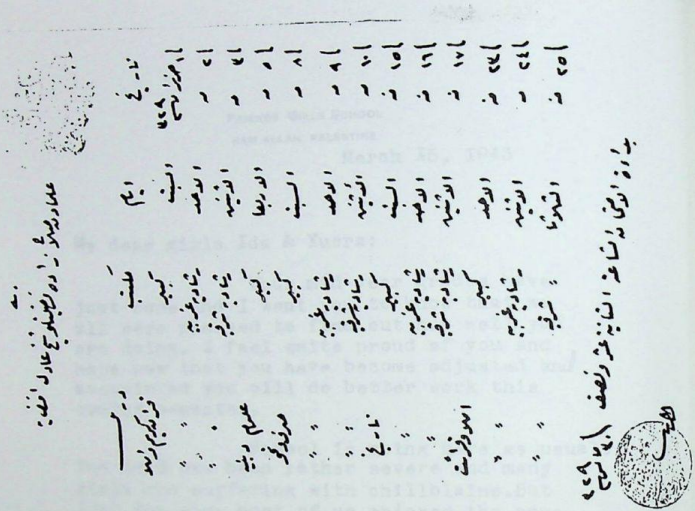

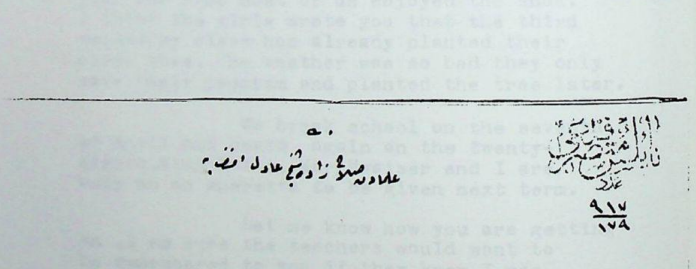

١) وثيقة تبين تكليف الشيخ عادل صلاح بأن يكون "مُميزًا" في لجنة امتحانات، إبّان العهد العثماني.

ويتبين جدول الإمتحان بالنسبة للأيام والمكان والموضوع.

Digitized by Birzeit University Library

FRIENDS GIRLS SCHOOL
RAM ALLAH, PALESTINE

March 15, 1943

My dear girls Ida & Yusra:

Your mid-year grades have just come and I want you to know that we all were pleased to find out how well you are doing. I feel quite proud of you and hope now that you have become adjusted and acquainted you will do better work this coming semester.

School is going here as usual. The cold has been rather severe and many girls are suffering with chillblains. But just the same most of us enjoyed the snow. I think the girls wrote you that the third secondary class has already planted their class tree. The weather was so bad they only gave their program and planted the tree later.

We break school on the seventh of April and begin again on the twenty-eighth. Miss White, Mary Nwaiser and I are busy on an operetta fo be given next term.

Let me know how you are getting on. I am sure the teachers would want to be remembered to you if they knew I was writing you now.

Lovingly

Victoria Hammad

٢) رسالة من مديرة مدرسة الفرندز، فكتوريا حنوش الى يسرة صلاح وعايدة عودة بعد التحاقهما في كلية البنات في بيروت.

Digitized by Birzeit University Library

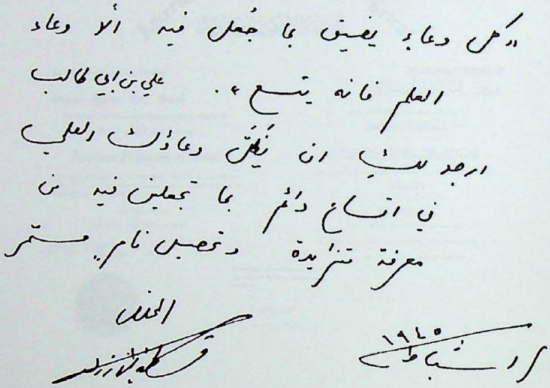

٢) نص ما كتبه استاذ التاريخ د. قسطنطين زريق في اوتوغراف يسرة صلاح عندما كانت طالبة في السنة الثالثة في الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٥.

Digitized by Birzeit University Library

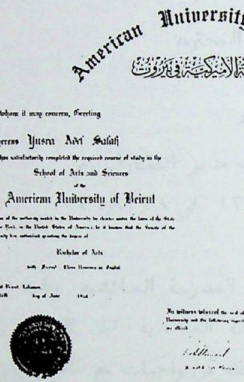

American University of Beirut

الجامعة الأميركية في بيروت

To whom it may concern, Greeting

Whereas Yusra Adel Salah

has satisfactorily completed the required course of study in the

School of Arts and Sciences

of the

American University of Beirut

Bachelor of Arts

يسرة عادل صلاح

كلية الآداب والعلوم

الجامعة الأميركية في بيروت

٤) شهادة التخرج من الجامعة الأميركية الصادرة عام ١٩٤٦.

ادارة المعارف

نابلس في ١٩٤٦/٩/٣ رقم ١٥٣٥/٧

حضرة الآنسه يسرى صلاح المحترمه

المبحث = التعيين ٠

الاشاره كتاب جناب مدير المعارف رقم
١٣١٧/٢٢٤٥ في ٠٤٦/٨/٢٨

سيكون مركز عملك في المدرسة العائشيه وعليه ارجو ان تراجعي حضرة رئيسة المدرسة العائشيه قبل التاريخ فتح المدرسة باسبوع لمعرفة ما سيناط بك من واجبات مع العلم بأن المدرسة تفتح بتاريخ ٠٤٦/٩/١٦

مفتش المعارف

نسخه لجناب مدير المعارف المحترم
" لحضرة رئيسة المدرسة العائشيه المحترمه

٥) كتاب تعيين يسرة صلاح مدرسة في المدرسة العائشية الصادر بتاريخ ١٩٤٦/٩/١٦.

Digitized by Birzeit University Library

THE TRUSTEES OF COLUMBIA UNIVERSITY

IN THE CITY OF NEW YORK

TO ALL PERSONS TO WHOM THESE PRESENTS MAY COME GREETING

BE IT KNOWN THAT

YUSRA SALAH

HAVING COMPLETED THE STUDIES AND SATISFIED THE REQUIREMENTS FOR THE DEGREE OF

MASTER OF ARTS

HAS ACCORDINGLY BEEN ADMITTED TO THAT DEGREE WITH ALL THE RIGHTS PRIVILEGES AND IMMUNITIES THEREUNTO APPERTAINING

IN WITNESS WHEREOF WE HAVE CAUSED THIS DIPLOMA TO BE SIGNED BY THE PRESIDENT OF THE UNIVERSITY AND BY THE PRESIDENT OF TEACHERS COLLEGE AND OUR CORPORATE SEAL TO BE HERETO AFFIXED IN THE CITY OF NEW YORK ON THE SECOND DAY OF JUNE IN THE YEAR OF OUR LORD ONE THOUSAND NINE HUNDRED AND FIFTY-THREE

PRESIDENT OF TEACHERS COLLEGE

Grayson Kirk

PRESIDENT OF THE UNIVERSITY

٦) شهادة الماجستير في تعليم اللغة الإنجليزية التي حصلت عليها من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٣.

Digitized by Birzeit University Library

THE FRANKLIN T. BAKER CITATION

is awarded in recognition of constructive association with students and staff, scholarship, and effective participation in the advancement of a professional spirit among teachers of English and Foreign Languages.

This citation is presented to

Yusra Salah

for notable contributions to the life of this department during the academic year 1952 - 1953.

DEPARTMENT OF THE TEACHING OF ENGLISH AND FOREIGN LANGUAGES
TEACHERS COLLEGE, COLUMBIA UNIVERSITY

٧) شهادة تقديرية من قسم تعليم اللغة الإنجليزية في جامعة كولوبيا - نيويورك عام ١٩٥٣.

Digitized by Birzeit University Library

آمال محمد سعيد العبوشي
جنين - الاردن
٢/١٠/١٩٥٥م

استاذتي ،

جئتك برسالتي هذه لأشكر المعلمة التي غرست في قلوب فتياتها وتلميذاتها حب المعرفة لكل صغيرة وكبيرة للاساس وشجعتهن على كل شيء . والتي جعلت من تلميذاتها حب الوطن والسعي لخدمة المجتمع من اي طريق كان . وهي المعلمة التي حباها الله بأن تكون قدوة للمعلمات ومثل رائع في المجتمع .

لقد عينت في مدرسة الوكالة للاجئين في جنين . وتقع هذه المدرسة بالقرب منا ولهذا فانني مسرورة جدا بسبب النظافة الكاملة والمديرة لطيفة جدا ومحبوبة وهي بالاضافة عادلة ومطيعة . وعندنا نخبة ممتازة من المعلمات انا مربية الصف الثاني "ب" واعلم اللغة العربية والحساب . وان هذا الصف من خيرة البنات في المدرسة . وان شاء الله سأقوم بكل ما في وسعي على حسن واجبات نحو المجتمع والوطن الذي هو بحاجة لكل فرد منا .

واختم رسالتي هذه بتكرار شكري الجزيل الجميل والى كل من كان هدفه الاصلاح .

تلميذتك ،
آمال .

٨) رسالة شكر من آمال محمد العبوشي، إحدى تلميذات يسرة صلاح، مؤرخة بـ ٢/١٠/١٩٥٥.

Digitized by Birzeit University Library

12 . 7. 1981

Dear teacher ,

We spent happy days with you at school .

You were our good example , and we were tought many things by you , not only English lessons .

You were always honest and helpful .

You are an unforgetable character .

I wish you would be always happy and healthy.

S. Arafat

٩) رسالة شكر من إحدى ربات البيوت اللواتي كن يدرسن اللغة الإنجليزية في معهد التنسيق مؤرخة بـ ١٩٨١/٧/١٢.

Digitized by Birzeit University Library

بســم الله الرحمن الرحيم

جامعة النجاح الوطنية
مكتب رئيس الجامعة

An-Najah National University
The President's Office

الرقم : ١/١/٥/١/٧ ت ا/رج/٨٥ Ref :
التاريخ : ١٩٨٥/١٠/٣٠ Date :

الفاضلة يسرى صلاح المحترمة

تحية طيبة وبعد،

أود أن أشكرك على تبرعك الكريم بمبلغ ثلاثمئة دينار لصندوق الطلبة ، ان هذا العمل الذى يضاف الى سلسلة الأعمال الخيرة التي قمت وتقومين بها تجاه جامعتنا الحبيبة ووطننا الغالي دافعك في ذلك روح الانتماء وجدية المسؤولية هو نتاج انسانية الانسان .

أعود فاسجل شكرى لك مرة أخرى لأرجو لك المزيد من العطاء واستمرارية روح العمل الفاعل في مختلف مجالات الحياة .

مع وافر الاحترام والتقدير .

رئيس الجامعة
د. منذر صلاح

نسخة/الى الملف .

ر ا/ات

١٠) رسالة شكر من رئيس جامعة النجاح الى يسرة صلاح عام ١٩٨٥.

Digitized by Birzeit University Library

الصـــور

Digitized by Birzeit University Library

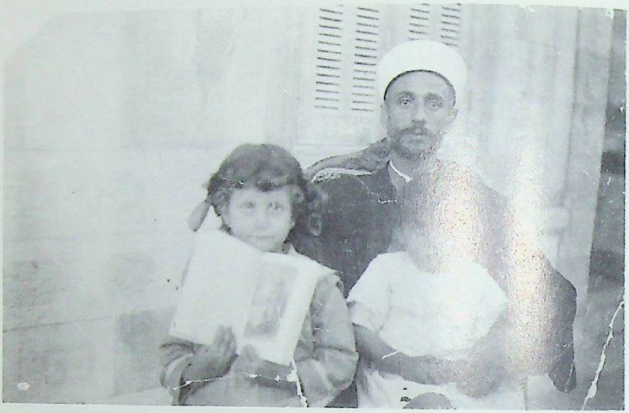

١) صورة تذكارية للشيخ عادل صلاح يحتضن ابنته يسرة، والى جانبها شقيقتها مسرة.

٢) يسرة صلاح في الرابعة من عمرها.

Digitized by Birzeit University Library

٣) يسرة صلاح في الأول الثانوي (بعد السابع الإبتدائي) في مدرسة الفرندز برام الله عام ١٩٤٠.

Digitized by Birzeit University Library

٤) خريجات مدرسة الفرندز عام ١٩٤٢:

الصف الأمامي من اليمين الى اليسار:

علياء التاجي، خديجة علاء الدين، يسرة صلاح، عايدة عودة، نجلاء صباغ، أديل سلطي، أرينيه ينوفكيان.

الصف الخلفي من اليمين الى اليسار:

وداد جابر، جورجيا مغنم، فيوليت حكيم، سلمى الشوا، زهوة حنا، ماري نويصر، فاطمة سروري.

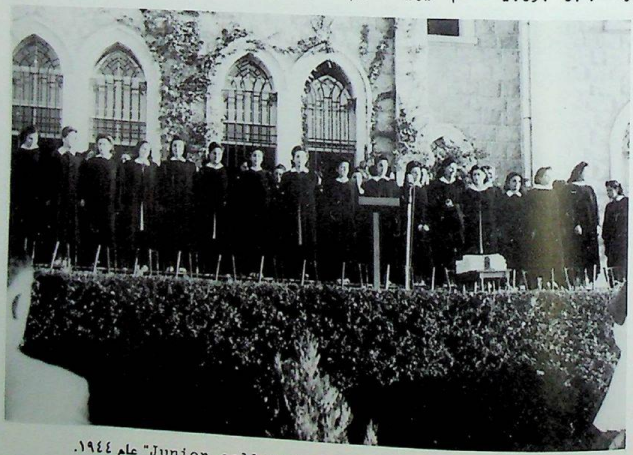

٥) يسرة صلاح مع خريجات كلية البنات في بيروت "Junior college" عام ١٩٤٤.

Digitized by Birzeit University Library

٦) يسرة في سنة التخرج من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٦.

٧) خريجات قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الإميركية في بيروت عام ١٩٤٦.
وهم من اليسار: هند تحسين قدري، يسرة صلاح، انديهاسيان.

Digitized by Birzeit University Library

٨) الهيئة التدريسية في المدرسة العائشية الثانوية للبنات عام ١٩٥١.
الجالسات على الدرج من اليمين: ندى القمحاوي (مديرة المدرسة)، لبيبة صلاح، عفاف عرفات.
الواقفات من اليمينَ: دمية كمال، يسرة صلاح، حيفاء ملحسي، محاسن الطاهر، نهى البيطار، عطاف هاشم، إنعام عبد المجيد، لواحظ عبد الهادي.

صورة تذكارية ليسره مع والدها ووالدتها وشقيقتها عام ١٩٦١.

Digitized by Birzeit University Library

٩) مؤتمر مكافحة الأمية في الاسكندرية الذي عقد في صيف عام ١٩٦٤.

١٠) وفد اتحاد الجتمعات العربية في فندق فلسطين في نابلس، بدعوة من المرحوم قدري طوقان عام ١٩٦٥. ويبدو في الصورة الأستاذ إبراهيم صنوبر، وتجلس الى يمينه الشاعرة فدوى طوقان ثم يسرة صلاح.

Digitized by Birzeit University Library

١١) الأستاذ ذوقان الهنداوي وزير التربية والتعليم الأردني يتصدر المائدة. وقد حضر بدعوة من د. قدري طوقان عند زيارة الوزير لمدينة نابلس في ١٩٦٦/٢/١٠.

١٢) حفلة تخرج الدفعة الأولى من جامعة النجاح الوطنية في نابلس عام ١٩٨١.
الى اليسار: أعضاء مجلس الأمناء، والى اليمين: اساتذة الجامعة. ورئيس الجامعة يلقي كلمة الجامعة ومن خلفه أعضاء مجلس الأمناء.
الصف الأمامي: يسرة صلاح، فدوى طوقان، د. جودت تفاحة، إبراهيم صنوبر، د. أحمد سروري.

Digitized by Birzeit University Library

للاتصال: مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني
جامعة بيرزيت
ص. ب ١٤
بيرزيت

مكتب إرتباط جامعة بيرزيت
ص. ب ٩٥٠٦٦٦
عمان ــ الأردن
فاكس: ٨٢٧٢٠٢ عمان

Digitized by Birzeit University Library